حياة النبي

صلى الله عليه و سلم

THE LIFE OF THE PROPHET

HZ. PEYGAMBERİN HAYATI

Mehmet Yılmaz

EMİN YAYINLARI

حياة النبي

صلى الله عليه و سلم

و لما حاول المشركون أن يضيقوا على رسول الله صلى الله عليه و سلم الخناق قرروا الذهاب إلى أبي طالب و هددوه بإعلان حرب عليهما معا إن لم يمنع ابن أخيه عن دعوته فأهمه العداء الذي صار بين قبيلته و ابن أخيه هما شديدا فنادى محمدا صلى الله عليه و سلم و أخبره بما حدث و قال:

" ابق على نفسك و علي و لا تحملني من الأمر ما لا أطيق."

فظن الرسول صلى الله عليه وسلم أن عمه ربما تخلى عن نصرته فحرمه من حمايته ، و مع ذلك رد عليه قائلا :

" و الله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته."

فرق له أبو طالب و قال:

" اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك إلى شيء تكرهه ما حييت" فهو قد شجعه بقوله هذا على نشر دعوته ، و منذ ذلك اليوم رفض أبو طالب بشدة أن يخضع لمطالب زعماء قريش أن يتخلى عن حماية ابن أخيه مهما جربوا معه من سبل ليقنعوه في ذلك.

Sertifika No:0507-16-008607
ISBN: 978-9944-404-30-3
EMİN YAYINLARI

حياة النبي

صلى الله عليه و سلم

THE LIFE OF THE PROPHET

HZ. MUHAMMEDİN HAYATI

Emin Yayınları- 50

THE LIFE OF THE PROPHET
HZ. MUHAMMEDİN HAYATI

Leila Azzam Aisha Gouverneur

İngilizceden Arapçaya Çeviren
Mehmet Yılmaz
U.Ü. İlahiyat Fakültesi
Arapça Okutmanı

1. Baskı - Bursa 2008

ISBN 978-9944-404-30-3
Sertifika No:0507-16-008607

Kapak Tasarım:
Emin ÖZDAMAR

Baskı: Bayrak Matbaası,
Davutpaşa Cd. No:14 K:2 Topkapı / İstanbul

EMİN YAYINLARI
Fethiye Mah., Kırlangıç Sok. No:2 16140 Nilüfer / BURSA
Tel: (0224) 242 28 98, Fax: (0224) 241 25 69
www.eminyayinlari.com

KÜTÜPHANE BİLGİ KARTI
Cataloging-in-Publication Data (CIP)
THE LIFE OF THE PROPHET
HZ. MUHAMMEDİN HAYATI
Leylâ Azam
Çev. Mehmet Yılmaz
1. Din 2. İslam 3. Hz. Muhammed

مقدمة 5
كَيْفَ بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ 1
أَوْلادُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ 8
النذر عند ماء زمزم 11
الفيل يأبى أن يتقدم 14
النبي يولد 16
قضاء فترة عند حليمة 18
طفولة اليتيم 21
زواج النبي صلى الله عليه و سلم 25
نزول جبريل الملك الموكل بالوحي 29
المسلمون الأوائل 32
و تبدأ المعانات 36
الملك الذي آمن 39
ظلم القرشيين 43
عام الحزن 47
الإسراء و المعراج 50
بيعة العقبة 54
الهجرة 57
الوصول إلى يثرب 62
غزوة بدر 65
أحد أو الهزيمة النكراء التي حلت بالمسلمين نتيجة مخالفتهم أمر الرسول صلى الله عليه و سلم 70
غزوة الخندق 75
صلح الحديبية 82
الدعوة 86
دخول مكة 93

الدرس العظيم في خطر الاغترار بالنفس بوادي حنين 100
تبوك أو الاختبار الصعب في الإيمان 103
حجة الوداع 107
وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم 112
مجموعة من أحاديث وردت في الترمذي في شمائل النبي صلى الله عليه و سلم 116
آل بيت الرسول صلى الله عليه و سلم.....121
نساؤه : 121
خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: 121
سودة العامرية رضي الله عنها:.....121
عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: 121
حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: 121
زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها: 121
أم سلمة رضي الله عنها 121
برة الجويرية رضي الله عنها: 121
زينب بنت جحش رضي الله عنها.....122
أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.....122
صفية بنت حيي رضي الله عنها:.....122
مَيْمُوْنَةُ بِنْتُ الحَارِثِ بنِ حَزْنٍ الهِلاَلِيَّةُ رضي الله عنها 122
ماريا القبطية رضي الله عنها:.....122
بنات النبي صلى الله عليه و سلم:.....122
ليلى عزام.....123

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله، اللهم بارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، سبحان الله و الحمد لله، وبعد،

يسر جمعية النصوص الإسلامية أنها بدأت إصدار سلسلة كتب الأطفال بهذه النسخة للسيرة النبوية ، مثلما بدأت سابقا مزاولة عملها الأساسي ، الذي هو نشر النصوص الإسلامية بإصدار كتاب تحت عنوان" محمد : سيرته حسب المصادر الأولى " لمؤلفه الدكتور مارتين لينجز ، و ترى الجمعية أنه من الضرورة بمكان إيصال الكتب المشوقة و العارية من المعلومات المغلوطة عن أصول الدين الإسلامي إلى أيدي الأطفال في عالم أخذ الدين يفقد أهميته فيه شيئا فشيئا، و من المؤسف جدا أن الكتب التي يمكن أن تملأ الفراغ في هذا المجال تعد بالأصابع في تلك الأسواق العامرة بكتب تجذب القارئ و لكنها لا تهدف إلا إلى خدمة المصالح الدنيوية فقط ، صحيح أن النوع الأول من تلك الكتب يمكن أن يقدم للأطفال الخلفية الضرورية للثقافة و التربية بشكل عام إلا أن تضاؤل الدور الذي يلعبه الدين في الحياة المعاصرة بشكل تدريجي يشهد أن الكتب الدينية المؤلفة من أجل الأطفال يراد لها أن تلعب دورا هامشيا لا قيمة له ، و تأمل الجمعية إذ تصدر هذه السلسلة للأطفال أن تجعل من الدين محور حياة الطفل لا هامشها .

جمعية النصوص الإسلامية

كمبرج 1985

كَيْفَ بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ

مُنْذُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلافِ سَنَةٍ كَانَ هُنَاكَ شَابٌّ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ يَعِيشُ فِي مَدِينَةِ أُورَ السُّومَرِيَّةِ الوَاقِعَةِ فِي وَادِي نَهْرِ الْفُرَاتِ، وَفِي بَادِئِ الأَمْرِ، كَانَ أَهْلُ مَدِينَةِ أُورَ يَعْبُدُونَ اللهَ الوَاحِدَ، وَلَكِنَّهُمْ بِمُرُورِ الأَيَّامِ نَسُوا الدِّينَ الحَقَّ، واتَّخَذُوا التَّمَاثِيلَ وَالأَصْنَامَ الْمَصْنُوعَةَ مِنَ الأَخْشَابِ وَالطِّينِ حَتَّى مِنَ الأَحْجَارِ الثَّمِينَةِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ آلِهَةً لَهُمْ لِيَعْبُدُوهَا.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَجِدُ صُعُوبَةً بَالِغَةً مُنْذُ طُفُولَتِهِ فِي أَنْ يَسْتَوْعِبَ كَيْفَ أَنَّ قَوْمَهُ بِمَنْ فِيهِمْ أَبُوهُ خُصُوصاً يَصْنَعُونَ هَذِهِ التَّمَاثِيلَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يُضْفُونَ عَلَيْهَا صِفَاتِ الأُلُوهِيَّةِ وَيَعْبُدُونَهَا؟

وَ لَمْ يَكُنْ يُشَارِكُهُمْ فِي طُقُوسِهِمْ قَطُّ ، بَلْ يُفَضِّلُ أنْ يُغَادِرَ الْمَدِينَةَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتَجَمَّعُونَ فِيهِ لأدَاءِ شَعَائِرِهِمْ رَاكِعِينَ أَمَامَ تَمَاثِيلِهِم تَعْظِيمًا وَ احْتِرَامًا لَهَا ، فَيَجْلِسُ وَحِيدًا يَتَأَمَّلُ السَّمَاوَاتِ وَ مَا حَوْلَهُ مِنْ هَذا الْعَالَمِ الفَسيحِ عَسَى أنْ يَهْتَدِيَ وَحْدَهُ إلى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ ، وَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ كَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أنَّ قَوْمَهُ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

وَ ذَاتَ لَيْلَةٍ صَافِيَةٍ مِنَ الْغُيُومِ بَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فِي تَأَمُّلاتِهِ الكَوْنَ ، إذَا بِهِ لَمَحَ فِي قَلْبِ السَّمَاءِ نَجْمَةً لامِعَةً غَايَةً فِي الْجَمَالِ ، فَصَاحَ مَسْحُورًا بِجَمَالِهَا الأخَّاذِ وَ هُوَ يَقُولُ: " هَذَا رَبِّي " وَ أَطَالَ النَّظَرَ إلَى النَّجْمَةِ فِي خُشُوعٍ إلَى أَنْ أَفَلَتْ فَجْأَةً وَ تَوَارَتْ عَنِ الأَنْظَارِ ، فَقَلَبَ وَجْهَهُ فِي خَيْبَةٍ وَ انْكِسَارٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنِّي لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ سورة الأنعام الآية 76

وَ فِي لَيْلَةٍ أُخْرَى كَانَ يَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ عَلَى عَادَتِهِ ، فَلَمَحَ الْقَمَرَ بَازِغًا ، وَ خُيِّلَ إلَيْهِ أَنَّ حَجْمَ الْقَمَرِ كَبِيرٌ جِدًّا وَ نُورَهُ لامِعٌ جِدًّا حَتّى ظَنَّ أَنَّهُ لَوْ مَدَّ يَدَهُ لَأمْكَنَ أَنْ يُمْسِكَ بِهِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ سورة الأنعام الآية 78

غَيْرَ أنَّ الْقَمَرَ سُرْعَانَ مَا غَابَ وَ تَوَارَى عَنِ الأَنْظَارِ ، فَقَالَ إبْرَاهِيمُ فِي نَفْسِهِ:

﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ سورة الأنعام الآية 77

وَ فِي إحْدَى الْمَرَّاتِ أَثَارَ انْتِبَاهَهُ مَنْظَرُ شُرُوقِ الشَّمْسِ الأخَّاذُ ، فَتَأَمَّلَهَا بِدِقَّةٍ ، ثُمَّ أَرْشَدَهُ تَفْكِيرُهُ إلَى أَنَّ الشَّمْسَ لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ شَيْءٍ وَ أَقْوَاهُ فِي هَذا الْكَوْنِ ، لَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا تَدَارَكَ فَسَادَ هَذا الحكمِ حِينَ رَأَى غُرُوبَ الشَّمْسِ آخِرَ النَهَارِ ، فَعَلِمَ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ خَالِقَ النُّجُومِ وَ الْقَمَرِ وَ الشَّمْسِ وَ الأَرْضِ وَ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ إنَّمَا هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، فَأَحَسَّ بِاطْمِئْنَانٍ كَبِيرٍ ، وَ أَمَانٍ شَدِيدٍ لِتَيَقُّنِهِ بِأَنَّهُ أَدْرَكَ أَخِيراً الْحَقِيقَة الَّتِي طَالَمَا حَلُمَ بِهَا . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ:" مَا تَعْبُدُونَ؟" قَالُوا: " نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ."

قَالَ: "هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؟"" أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟" قَالُوا: " بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ."

قَالَ : "أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟" " أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ؟" فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ.

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ سورة الشعراء الآيات من 70 إلى 82

وَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ أَهَالِي الْمَدِينَةِ كُلُّهُمْ خَارِجَهَا حَطَّمَ إِبْرَاهِيمُ جَمِيعَ الأَصْنَامِ عَدَا الصَّنَمَ الأَكْبَرَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى فِي غَضَبٍ ، وَ لَمَّا عَادَ النَّاسُ وَ شَاهَدُوا أَصْنَامَهُمْ قَدْ تَحَطَّمَتْ وَ تَنَاثَرَتْ عَلَى الأَرْضِ ، ثَارَتْ ثَوْرَتُهُمْ ، وَ تَذَكَّرُوا مَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ فِي أَصْنَامِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، فَأَخْرَجُوهُ أَمَامَ الْمَلأِ وَ سَأَلُوهُ:

﴿" أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قَالَ : " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ (قَائِلِينَ) : " لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ". قَالَ: " أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ؟"﴾ سورة الأنبياء الآيات من 62 إلى 66

وَ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَ هُوَ يُنْذِرُهُمْ:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا، وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ،

لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا، فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ

(ذَلِكَ أَنَّكُمْ) إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ سورة العنكبوت الآيتان 16-17

هُنَا اتَّفَقَ أَهَالِي مَدِينَةِ أُورَ عَلَى أَنْ يُنْزِلُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ أَشَدَّ الْعُقُوبَاتِ ، إِنَّهُمْ تَوَاطَؤُوا عَلَى قَتْلِهِ رَمْيًا فِي النَّارِ ، وَ لَمَّا حَانَ الْمَوْعِدُ الْمَضْرُوبُ لِتَنْفِيذِ الْحُكْمِ ، اجْتَمَعَ الأَهَالِي بِمَنْ فِيهِمْ مَلِكُهُمْ وَسَطَ الْمَدِينَةِ ،

وَ اقْتَادُوا إِبْرَاهِيمَ إِلَى داخِلِ مَبْنىً خَاصٍّ مَمْلُوءٍ بِالْحَطَبِ ، ثُمَّ أَشْعَلُوا النَّارَ عَلَيْهِ ، فَسُرْعَانَ مَا اشْتَدَّ اللَهِيبُ حَتَّى بَلَغَ حَدّاً لا يُطَاقُ ، فَانْدَفَعَ الْقَوْمُ يَتْرُكُونَ مَوَاقِعَهُمْ مُتَرَاجِعِينَ إلى الوَرَاءِ ، وَ لَكِنَّ اللهَ قَالَ:

﴿ يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ سورة الأنبياء الآية 69

اِنْتَظَرَ النَّاسُ إِلَى أَنِ انْطَفَأَتِ النَّارُ تَماماً، فإذَا بِهِمْ أَمَامَ مَشْهَدٍ عَجِيبٍ ، وَ قَدْ تَمَلَّكَهُمُ الذُّهُولُ وَالدَّهْشَةُ مِمَّا شَاهَدُوهُ ، إِنَّهُمْ رَأَوْا إِبْرَاهِيمَ جَالِساً مَكَانَهُ وَ كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَحْدُثْ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مَشْدُوهِينَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً ، بَلْ رَجَعُوا إِلَى عَهْدِهِم القَدِيمِ دُونَ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِتِلْكَ الْمُعْجِزَةِ الكَبِيرَةِ الَّتِي جَرَتْ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، أَمَّا إِبْرَاهِيمُ ، فَقَدْ حَاوَلَ بَعْدَ ذَلِكَ اليومِ أنْ يُقْنِعَ وَالِدَهُ الْوَحِيدَ المدْعُوَّ آزَرَ بِألا يَعُودَ إِلَى عِبَادَةِ تِلْكَ التَّمَاثِيلِ الَّتِي لا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ لا تُبْصِرُ وَ لا تَسْمَعُ ، رَاجِياً و مُتَرَجِّياً يُذَكِّرُهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الْخَاصِّ :

﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ سورة مريم الآيتان 43-44

غَيْرَ أَنَّ آزَرَ لَمْ يُصْغِ إِلَى ابْنِهِ، بَلْ هَدَّدَهُ بِأَنْ يَرْجُمَهُ بِالْحِجَارَةِ إِنْ لَمْ يَنْتَهِ مِنْ جُحُودِهِ لآلِهَةِ أَهَالِي أُورَ وَ أَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةَ : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ سورة مريم الآية:46 رَدَّ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ قَائِلاً: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ سورة مريم الآية 47.

وَ الآنَ ، تَخَيَّلُوا مَلِيّاً أَنَّهُ كَمْ كانَ صَعْباً عَلَى إِبْراهيمَ أَنْ يُجْبَرَ عَلَى مُغَادَرَةِ مَوْطِنِهِ وَ أُسْرَتِهِ وَ كُلِّ شَيْءٍ يَأْلَفُهُ وَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ ، فَيُرْمَى وَحِيداً وَسَطَ عَالَمٍ مُوحِشٍ ! وَ فِي ذاتِ الْوَقْتِ كَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَعِيشَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، بل يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ؟ وَ لَكِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَالَجَهُ شُعُورٌ بِأَنَّ اللهَ فِي رِعَايَتِهِ وَ حِفْظِهِ طَوَالَ سَفَرِهِ ، كَمَا كَانَ يُلازِمُهُ هَذا الشُّعُورُ فِي حَلِّهِ و تَرْحَالِهِ دَائِماً.

وَ بَعْدَ سَفَرٍ شَاقٍّ وَ طَوِيلٍ ، اسْتَقَرَّ بِهِ الْمُقَامُ أَخِيراً بِالْقُرْبِ مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ الأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ بِجِوَارِ بِلادِ مِصْرَ ، حَيْثُ تَزَوَّجَ هُنَاكَ بِامْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ تُدْعَى سَارَةَ ، وَهُوَ مَا جَعَلَهُ قَرَّرَ الإِقَامَةَ فِي أَرْضِ فِلِسْطِينَ.

مَرَّتْ سِنُونَ طِوَالٌ وَ زَوْجَةُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ تُنْجِبْ لَهُ بَعْدُ ، وَ هُوَ مَا جَعَلَ سَارَةَ أَنْ عَرَضَتْ عَلَى زَوْجِهَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا بِجَارِيَتِهِ الْمِصْرِيَّةِ هَاجَرَ طِبْقاً لِعَادَاتِهِمْ وَ تَقَالِيدِهِم السَّارِيَةِ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ عَسَى أَنْ تُقِرَّ هَاجَرُ عَيْنَهُ بِوَلَدٍ ، وَ بِالفِعْلِ تَمَّ هَذا الزَّوَاجُ بَعْدَ مُضِيِّ فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ ، وَ أَنْجَبَتْ هَاجَرُ وَلَداً جَمِيلاً سُمِّيَ إِسْمَاعِيلَ.

وَ لَمْ يَمْضِ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّى رَزَقَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ بِمَوْلُودٍ آخَرَ ، وَ لَكِنَّ هذه الْمَرَّةَ لَمْ تَكُنْ هَاجَرُ هِيَ الوالِدَةَ ، و إِنَّمَا كَانَتِ زَوْجَتَهُ الأُولَى سَارَةَ ، وَ أُطْلِقَ عَلَى الْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ اسْمُ إِسحقَ.

هَـذَا ، وَقَـدْ أَوْحَى اللهُ إِلَى إِبْـرَاهِيمَ بِأَنَّـهُ سَـوْفَ يُخْـرِجُ مِـنْ ذُرِّيَّـةِ ابنَيْـهِ إِسْمَاعِيـلَ وَ إِسْـحَقَ أُمَّتَـيْنِ وَ ثَلاثَةَ أَدْيَانٍ ، وَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ أَنْ يَأْخُذَ هَاجَرَ وَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ فِلَسْطِينَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَا جَرَى مِنْ تِلْكَ الأَحْدَاثِ كَانَ جُزْءاً مُهِمّاً مِمَا شَاءَ اللهُ فِي الأَقْدَارِ ، فَقَدِ اسْتَطَاعَ أَحْفَادُ إِسْمَاعِيلَ لاحِقاً أَنْ يُخْرِجُوا أُمَّةً بُعِثَ فِيهَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ يَهْدِي البَشَرِيّةَ إِلَى طَرِيقِ اللهِ ، وَ لَمْ يَكُنْ هذا النبيُّ الْعَظِيمُ غَيْرَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ كَانَ قَدْ بُعِثَ قَبْلَهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْحَقَ بنِ سَارَةَ مُوسى وَ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ كَذَلِكَ.

غَادَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ فِلَسْطِينَ وَمَعَهُ هَاجَرُ وَ إِسْمَاعِيلُ اِمْتِثَالاً لأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَ سَارُوا أَيَّاماً إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى وَادِي بَكَّةَ الْقَاحِلِ (سُمِّيَتْ فِيمَا بَعْدُ بِمَكَّةَ) الْوَاقِعِ عَلَى طَرِيقٍ تَمُرُّ بِهَا قَوَافِلُ كَبِيرَةٌ ، وَ لَمْ تَكُنْ فِي الْوَادِي تَتَوَافَرُ قَطْرَةُ مَاءٍ ، وَ لَمْ يَكُنْ مَعَ هَاجَرَ وَ إِسْمَاعِيلَ إلا زادٌ جِدُّ قَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ ، و مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ تَرَكَهُمَا إِبْرَاهِيمُ هُنَاكَ وَحِيدَيْنِ لإِيمانِهِ القَوِيّ بِأَنَّ اللهَ سَوْفَ يَتَوَلّاهُمَا بِرِعَايَتِهِ وَحِفْظِهِ .

وَلَمْ يَمْضِ إلّا قَلِيلٌ مِنَ الْوَقْتِ حَتَّى نَفِدَ كُلُّ مَا يَمْلِكَانِهِ مِنَ الْمَاءِ ، فَبَدَأَتْ بَوَادِرُ الإرْهَاقِ تَظْهَرُ عَلَى الطِّفْلِ الصَّغِيرِ شَيْئاً فَشَيْئاً ، وَ كَانَتْ هُنَاكَ تَلَّتَانِ قَرِيبَتَانِ بَعْضُهُمَا مِنَ الْبَعْضِ ، إحْدَاهُمَا تُسَمَّى الصَّفَا وَ الأخْرَى الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ هَاجَرُ عَلَى إحْدَى هَاتَيْنِ التَّلَّتَيْنِ تَسْتَقْبِلُ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةَ حَوْلَهَا فِي الْوَادِي عَلَى أَمَلِ أنْ تَقَعَ عَيْنَاهَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أثَرِ مَاءٍ ، ثُمَّ صَعِدَتِ التَّلَّةَ الأخْرَى ، فَكَرَّرَتِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، ثُمَّ عَادَتْ إلَى جِوَارِ ابْنِهَا فِي حُزْنٍ عَمِيقٍ ، وَ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي أنَّ هُنَاكَ مُفَاجَأَةً كُبْرَى وَ فَرْحَةً غَامِرَةً فِي انْتِظَارِهَا ؛ فَقَدْ وَجَدَتْ بِجِوَارِ ابْنِهَا عَيْنَ مَاءٍ تَفِيضُ مِنْ بَاطِنِ الأرْضِ ، وَ قَدْ أُطْلِقَ فيما بَعْدُ عَلَى هَذا الْمَاءِ الَّذِي اسْتَقَرَّتِ الأمُّ وَ ابْنُهَا بِجِوَارِهِ اسْمُ زَمْزَمَ ، وَ أصْبَحَتِ الْمِنْطِقَةُ الْمُحِيطَةُ بِمَاءِ زَمْزَمَ مَحَلَّ إقَامَةٍ لِلْقَوَافِلِ الَّتِي تَرْتَحِلُ فِي وَسَطِ الصَّحْرَاءِ ، فَتَحَوَّلَتْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ إلَى مَدِينَةِ مَكَّةَ التِّجَارِيَّةِ الشَهِيرَةِ.

وَ كَانَ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ يَتَرَدَّدُ مِنْ وَقْتٍ إلَى آخَرَ عَلَى مَكَّةَ قَادِماً مِنْ فِلَسْطِينَ لِزِيَارَةِ أُسْرَتِهِ فِيهَا وَ يَرَى فِي أثْنَاءِ ذَلِكَ ابْنَهُ إسْمَاعِيلَ يَتَرَعْرَعُ وَ يُصْبِحُ فَتىً يَافِعاً ، وَ فِي إحْدَى زِيَارَاتِهِ هَذِهِ ، أمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَ جَلّ بِبِنَاءِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أيْ الكَعْبَةِ مِنْ جَدِيدٍ وَ هُوَ أوَّلُ مَسْجِدٍ وُضِعَ للبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ لِيَعْبُدُوا اللهَ فِيهِ مخلصين له الدين.

وَقَدْ أخْبَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَوْضَعِ الذي سَوْفَ يَبْنِيَانِ البَيْتَ الْعَتِيقَ فِيهِ تَحْدِيداً ، و بالهيئة التي سوف يبنى عليها ، فَكَانَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَبْنِيَاهُ عَلَى شَكْلِ مُكَعَّبٍ بِجِوَارِ زَمْزَمَ ، وَ أنْ يَضَعَا فِي الرُّكْنِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ حَجَراً يُرْوَى أنَّهُ نَزَلَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَ أَحْضَرَهُ إلَيْهِمَا مَلَكٌ مِنْ جَبَلِ أبِي قُبَيْسٍ الْقَرِيبِ.

وَ قَدْ بَذَلَ كُلٌّ مِنْ إبْرَاهِيمَ وَ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ مَا بِوُسْعِهِمَا مِنْ جُهُودٍ جَبَّارَةٍ وَ عَمِلا بِهِمَّةٍ وَ نَشَاطٍ فِي إعَادَةِ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيدٍ وَ دَعَوَا اللهَ أنْ يَبْعَثَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا نَبِيّاً مُرْسَلاً:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (دعا إبراهيم): "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؛ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ. وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا. إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا، وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" سورة البقرة الآيات من 127 إلى 129

وَ عَقِبَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ ، أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى أَنْ يَحُجُّوا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الَّذِي يُسْمِعُ بِهِ صَوْتَهُ ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا مَعْنَاهُ : "ادْعُهُمْ فَأَنَا آتٍ بِهِمْ" وَ هَكَذَا بَدَأَتْ لأَوَّلِ مَرَّةٍ زِيَارَةُ الْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، وَ الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ ، حِينَمَا يُؤَدُّونَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ ، إِنَّمَا يُوَاصِلُونَ تِلْكَ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، الَّتِي تَصِلُهُمْ نَابِعَةً مِنْ أَعْمَاقِ الْقُرُونِ الْغَابِرَةِ .

أوْلادُ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ

مَرَّتْ سِنُونَ وَ سِنُونَ... وَ تَكَاثَرَ نَسْلُ إِسْمَاعِيلَ عليه السلامُ بِمُرُورِ الأيَّامِ حَتَّى أَصْبَحُوا قَبَائِلَ انْتَشَرَتْ فِي كُلِّ أرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَ كَانَتْ إحْدَى تِلْكَ الْقَبَائِلِ تُدْعَى قُرَيْشاً ، وَ لَمْ تُغَادِرْ قَبِيلَةُ قُرَيْشٍ مَكَّةَ قَطُّ ، بَلْ ظَلَّتْ بِجِوَارِ الْكَعْبَةِ أمَداً بَعِيداً.

وَ كَانَ مِنْ مَسْؤُولِيّاتِ سَيِّدِ قُرَيْشٍ أنْ يُوَفِّرَ سُبُلَ الرَّاحَةِ لِلْحُجَّاجِ الَّذِينَ يَفِدُونَ عَلَى مَكَّةَ وَ مَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ وَ شَرَابٍ ، وَ لِكَثْرَةِ عَدَدِ الْحُجَّاجِ الْوَافِدِينَ مِنْ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ،كَانَتِ الرِّفَادَةُ – وَ هِيَ طَعَامٌ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَجْمَعُهُ كُلَّ عَامٍ لأهْلِ الْمَوْسِمِ ، وَ يَقُولُونَ هُمْ ضُيُوفُ اللهِ تَعَالَى – وَ السِقَايَةُ – وَ هِيَ سَقْيُهُمْ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ_ تُعَدَّانِ مِنَ الأعْمَالِ الْجَلِيلَةِ.

وَ لَكِنْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ أَخَذَ الْعَرَبُ يَنْحَرِفُونَ شيئاً فَشيئاً عَنْ عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ بَدَؤُوا يَجْلُبُونَ مَعَهُمْ أصْنَاماً مِنْ بِلادٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُسَافِرُونَ إِلَيْهَا ، ثُمَّ يَنْصِبُونَهَا دَاخِلَ الْكَعْبَةِ ، لِذَا فَلَمْ تَكُنِ الْكَعْبَةُ مَعْبَداً خَالِصاً للهِ عَزَّ وَ جَلَّ كَمَا كَانَ يَأْمُلُ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ تَكُونَ ، وَ مَعَ ذَلِكَ كَانَ الْعَرَبُ يُكِنُّونَ لَهُ كُلَّ الاحْتِرَامِ وَ التَّقْدِيرِ ، وَكَانَ زَمْزَمُ غَائِراً فِي الرِّمَالِ ، وَ مَطْمُوسَ الْمَعَالِمِ آنذاك.

وَ فِي هَذِهِ الْحِقْبَةِ الزَّمَنِيَّةِ صَارَ قُصَيٌّ رَئِيساً لِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، وَ كَانَ مِنْ أشْرَافِ قُرَيْشٍ ، فَصَارَتْ إلَيْهِ حِجَابَةُ الْبَيْتِ – وَ هِيَ إدَارَةُ شُؤُونِ الْكَعْبَةِ وَ حِرَاسَتُهَا – وَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُهُ ، فَلا يَدْخُلُ أحَدٌ إلا بِإذْنِهِ ، وَ سِقَايَةُ زَمْزَمَ ، وَ الرِّفَادَةُ ، وَ رِيَاسَةُ دَارِ النَّدْوَةِ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لِلْمَشْوَرَةِ وَ الرَّأْيِ وَ تَوْزِيعِ الأَلْوِيَةِ قَبْلَ نُشُوبِ الْحُرُوبِ، بِالإضَافَةِ إلَى أنَّ الْقُرَشِيّينَ كَانُوا يَقْصِدُون دَارَهُ لِلْبَحْثِ عَنْ حُلُولٍ لِمَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنْ خِلافَاتٍ وَ مُشْكِلاتٍ.

وَ لَمَّا مَاتَ قُصَيٌّ آلَتِ الرِّيَاسَةُ إلَى ابْنِهِ عَبْدِ مَنَافٍ الَّذِي كَانَ قَدْ ذَاعَ صِيتُهُ قَبْلَ وَفَاةِ وَالِدِهِ ، وَ بَعْدَهُ تَوَلَّى الرِّيَاسَةَ ابْنُهُ هَاشِمٌ ، وَ يُرْوَى أنَّ هَاشِماً هَذَا ، هُوَ أوَّلُ مَنْ قَامَ مِنْ قُرَيْشٍ بِتَنْظِيمِ رِحْلَتَيِّ الصَّيْفِ وَ الشِّتَاءِ الْكَبِيرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتْ إحْدَاهُمَا تَتَّجِهُ شِمَالاً فِي فَصْلِ الصَّيْفِ نَحْوَ سُورِيَا ، وَ الأخْرَى جَنُوباً فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ نَحْوَ الْيَمَنِ مِمَّا أَسْهَمَ فِي إثْراءِ مَكَّةَ وَ تَحْوِيلِهَا إلَى مَرْكَزٍ تِجَارِيٍّ كَبِيرٍ ذِي أهَمِّيَةٍ فِي الْمِنْطِقَةِ.

خَرَجَ هَاشِمٌ فِي أحَدِ فُصُولِ الصَّيْفِ فِي سَفَرٍ نَحْوَ الشِّمَالِ لِشِرَاءِ سِلَعٍ تِجَارِيَّةٍ عَلَى أنْ يَبِيعَهَا فِي الْيَمَنِ ، وَ فِي طَرِيقِهِ تَوَقَّفَ فِي يَثْرِبَ لِلتَّسَوُّقِ ،

وَ هُنَاكَ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ، وَ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ غَيْرَ سَلْمَى ابْنَةِ عَمْرِو بْنِ زَيْدٍ الَّذِي يَنْحَدِرُ مِنْ أُسْرَةٍ ذاتِ حَسَبٍ وَ نَسَبٍ، وَ لِمَكَانَةِ أُسْرَتِهَا أَرَادَ هَاشِمٌ أَنْ يَرْتَبِطَ بِهَا ، فَعَرَضَ عَلَيْهَا الزَّوَاجَ ، وَ لأَمَانَتِهِ وَ شَخْصِيَّتِهِ الْمَعْرُوفَةِ حَظِيَ عَرْضُهُ عِنْدَهَا بِالْقَبُولِ ، وَ أَنْجَبَتْ لَهُ سَلْمَى طِفْلاً جَمِيلاً أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْبَةَ لانتِشَارِ الشَّيْبِ فِي جُزْءٍ مِنْ رَأْسِهِ ، و لَمَّا حَانَ وَقْتُ الرَّحِيلِ وَ عَقَدَ هَاشِمٌ الْعَزْمَ عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ فَضَّلَتِ الأُمُّ الْبَقَاءَ مَعَ ابْنِهَا فِي يَثْرِبَ لأَنَّ مُنَاخَهَا أَكْثَرُ اعْتِدَالاً وَ أَنْسَبُ لِلإِقَامَةِ فيها مِنَ النَّاحِيَةِ الصِّحِّيَّةِ عَلَى أَنْ يَزُورَهُمَا زَوْجُهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ سَوْفَ يَتَوَجَّهُ فِيهَا بِقَافِلَتِهِ نَحْوَ الشِّمَالِ ، إِلاَّ أَنَّهُ أُصِيبَ فِي أَحَدِ أَسْفَارِهِ بِوَعْكَةٍ صِحِّيَّةٍ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ الشِّفَاءُ مِنْهَا، فَفَارَقَ الحَيَاةَ.

نَشَأَ شَيْبَةُ هَذَا الطِّفْلُ الْوَسِيمُ الذَّكِيُّ وَ تَرَعْرَعَ فِي دَارِ خَالِهِ بِيَثْرِبَ ، وَ بِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَذَكَّرُ شَيْئاً عَنْ ذِكْرَيَاتِ طُفُولَتِهِ مَعَ وَالِدِهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ وَقْتَ وَفَاتِهِ إِذْ كَانَ لا يَزَالُ فِي مَرْحَلَةِ طُفُولَتِهِ الأُولَى لَمَّا مَاتَ وَالِدُهُ إلا أَنَّهُ كَانَ يَتَبَاهَى دَائِماً بِأَنَّهُ ابْنُ سَيِّدِ قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ السَّابِقِ وَ حَاجِبِ الْكَعْبَةِ وَ رَاعِي أَحْوَالِ الْحُجَّاجِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ.

وَ بَعْدَ وَفَاةِ هَاشِمٍ تَوَلَّى الرِّيَاسَةَ شَقِيقُهُ الْمُطَّلِبُ ، فَانْتَقَلَتْ إِلَيْهِ جَمِيعُ صَلاحِيّاتِهِ وَ مَسْؤُولِيَّاتِهِ ، وَ ذَاتَ مَرَّةٍ سَافَرَ الْمُطَّلِبُ إِلَى يَثْرِبَ لِيَطَّلِعَ عَلَى أَحْوَالِ ابْنِ أَخِيهِ شَيْبَةَ ، و لاحَظَ أَنَّ لَهُ خِصَالاً يُمْكِنُ أَنْ تُؤَهِّلَهُ لِيَحُل مَحَلَّ وَالِدِهِ فِي أَحَدِ الأَيَّامِ ، وَ تَبَيَّنَ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ حَانَ لِيَعِيشَ شَيْبَةُ فِي مَكَّةَ مِنَ اليَوْمِ فَصَاعِداً.

وَ فِي بَادِئِ الأمْرِ كَانَ مِنَ الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ أنْ تَأْذَنَ أُمُّ شَيْبَةَ لابنِهَا بِالرَّحِيلِ مَعَ عَمِّهِ بَعِيداً عَنْهَا ، وَ لَكِنَّهَا رَضِيَتْ أخِيراً بَعْدَ أَنْ اقْتَنَعَتْ بِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْراً لابْنِهَا ، فَعَادَ الْمُطَّلِبُ إِلَى مَكَّةَ وَ شَيْبَةُ خَلْفَه عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَ لَمَّا دَخَلَهَا وَقْتَ الظَهيرَةِ رَأَى أَهْلُ مَكَّةَ الْغُلامَ، فَظَنُّوا أَنَّهُ عَبْدٌ لَهُ، فَنَادَوْهُ مُشِيرِينِ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِهِمْ بِ"عَبْدِ الْمُطَّلِبِ" ، وَ أَنْبَأَهُمُ الْمُطَّلِبُ بَأَنَّ شَيْبَةَ لَيْسَ بِعَبْدٍ لَهُ ، وَ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِيهِ قَدِمَ إِلَى مَكَّةَ لِيَعِيشَ مَعَهُمْ ، إلاّ أَنَّ شَبْيَةَ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ بِهَذَا اللَّقَبِ وَ نُودِيَ فِي حُبٍّ وَ مَوَدَّةٍ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَ لَمَّا وَافَى الأجَلُ الْمُطَّلِبَ فِي أَحَدِ أَسْفَارِهِ التِّجَارِيَّةِ التِّي كَانَ يُنَظِّمُهَا إِلَى الْيَمَنِ ، حَلّ عَبْدُ المطَّلِبِ مَحَلَّهُ ، فَصَارَ بِذَلِكَ أَكْثَرَ مَنْ نَالَ احْتِرَامَ الْجَمِيعِ وَ إِعْجَابَهُمْ و حُبَّهُمْ بَيْنَ أَفْرَادِ الأُسْرَةِ ، وَ مَعَ هَذاَ ، فَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يُشْبِهُ قَطُّ أولَئِكَ الْعَرَبَ الَّذِينَ هَجَرُوا تَعَالِيمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ.

النَّذْرُ عِنْدَ مَاءِ زَمْزَمَ

كَانَ زَمْزَمُ غَائِرًا فِي الرِّمَالِ فِي الْحِقْبَةِ الزَّمَنِيَّةِ التي مَلأ الْعَرَبُ الْكَعْبَةَ بِالأصْنَامِ فِيهَا مِمَّا اضْطَرَّ قُرَيْشاً إِلَىَ أنْ يَجْلُبُوا مِنَ الْمِيَاهِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ ، وَ اسْتَمَرَّتْ حَالُهُمْ عَلَى ذَلِكَ سَنَوَاتٍ وَ سَنَوَاتٍ، وَ ذاتَ يَوْمٍ كَانَ الإرْهَاقُ قَدْ أَخَذَ مِنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَأْخَذَهُ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ يَحْمِلُ الماءَ ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ بِجِوَارِ الْكَعْبَةِ، وَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأنَّ أَحَداً طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَحْفِرَ زَمْزَمَ ، فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ نَوْمِهِ عَجِبَ مِنْ أَمْرِهِ وَ دُهِشَ ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ شَيْئاً عَنْ زَمْزَمَ ؛ فَقَدْ كَانَ مَوْضِعُهُ قَدِ اسْتَوَى عَلَيْهِ التُّرابُ قَبْلَ وِلادَتِهِ بِسَنَوَاتٍ، وَ الْغَرِيبُ فِي الأمْرِ أَنَّهُ رَأَى الرُّؤْيَا نَفْسَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، وَ دَلُّوهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ عَلَى الْمَوْضِعِ الذي سَوْفَ يَجِدُ فِيهِ مَصْدَرَ زَمْزَمَ.

بادر عبد المطلب بالحفر مع ابنه الوحيد آنذاك ، و كان عملهما شاقا جدا حتى إنه نذر الله تعالى إن يرزقه بعشرة أولاد يقومون بمساعدته و يساندونه أن ينحر أحدهم تقربا إلى الله عز و جل ، و بعد عمل شاق و جهد جهيد دام ثلاثة أيام ، تمكن عبد المطلب و معه ابنه من الوصول أخيرا إلى النبع ، و منذ ذلك الوقت يظل الحجاج يشربون منه على الدوام.

مرت سنون ، و أنجب عبد المطلب عشرة أولاد ، و بمرور الأيام كبر الأولاد حتى أصبحوا شبانا أقوياء يمتلئون صحة و نضارة ، و هو ما أصبح ينذر الآن بأنه قد حان الأوان ليوفي عبد المطلب بنذره ، فقام يخبرهم بالأمر ، فرضوا أن ينحر واحدا منهم ، و ليتم تحديد من سوف يقع عليه الاختيار اتفقوا على أن يقترعوا على عادة العرب كلما تشتد بهم الحيرة في اتخاذ قرار مهم في أمورهم التي يهتمون بها ، فطلب منهم عبد المطلب أن يأخذ كل واحد سهما يكتب عليه اسمه ثم يعيده إليه، فنفذوا له ما أراد ، ثم جمع عبد المطلب السهام منهم و ذهب بها إلى رجل عند الكعبة عمله أن يجري قرعة وقتما يريد العرب القسمة بالأزلام ، و كان عليهم أن يرضوا بقسمتهم و يعملوا بمقتضى ما تصيب قرعة الرجل ، قام الرجل بأداء عمله بدقة ، فكان السهم الذي أصابته قرعته مكتوب عليه اسم عبد الله أصغر أولاد عبد المطلب و أحبهم إليه ، و مع هذا فقد أخذ عبد المطلب ابنه و ذهب به إلى الكعبة يتأهب لنحره.

و في هذه الأثناء كان معظم أشراف قريش عند الكعبة ، فأثار غضبهم ما شاهدوه ؛ ذلك أن عبد الله لا يزال في سن صغيرة من جهة ، و محبوب من الجميع من جهة أخرى ، فحاولوا البحث عن إيجاد حل لإنقاذ حياته ، فاقترح أحدهم على عبد المطلب أن يستشير عرافة عجوزا تقيم بثيرب في الأمر، فانطلق عبد المطلب مع ابنه ليرى ماذا سوف تقرره العرافة العجوز ؟ و رافقهما في الرحلة بعض رجال مكة ، و لما وصلوا هناك سألتهم العرافة :"كم دية قتيل آدمي فيكم ؟"

قالوا:" عشر من الإبل" ، و كانت كذلك ، فإذا قتل أحدهم رجلا كان على قومه أن يدفعوا عشرا من الإبل لقوم القتيل ثمنا لدمه و ذلك للحفاظ على السلم بينهم آنذاك، عند ذلك قالت لهم العرافة أن ارجعوا إلى مكة و أخرجوا عشرا من الإبل و أجروا القرعة بينها و بين عبد الله ، فإن أصابت الإبل فاذبحوها، و أطعموا الفقراء ، و إن أصابت عبد الله فزيدوا عليها عشرا أخرى واصنعوا هكذا، حتى تصيب القرعة الإبل.

رجع عبد المطلب مع ابنه و رجال مكة إلى الكعبة ، و أخذوا يجرون القرعة بين عبد الله و الإبل بينما كان عبد المطلب يدعو الله أن ينجي له ابنه ، و الكل ينتظر النهاية في صمت عميق ، و أصابت القرعة عبد الله فزادها أبوه عشرا ، فأعاد الكرة تلو الأخرى ولكنها كانت تصيب عبد الله في كل مرة ، و هو لا يزال يزيدها عشرا حتى بلغ عددها المائة و في محاولة أخيرة أعاد القرعة فأصابت الإبل!.

طرب الجميع لنجاة عبد الله ، إلا أن عبد المطلب قال: لا بد أن يطمئن قلبي و يرتاح ضميري من أن الله راض بفعلتي هذه ، و طلب أن تجرى القرعة مرة أخرى ، فأصابت الإبل ، و كرر ذلك ثالث مرة ، فأصابت الإبل أيضا! و بذلك اطمأن قلبه، و استبشر وجهه، و نادى في الناس: خذوا الإبل فانحروها ، و أطعموا الفقراء في السهل ، والوحوش في الجبال.

كبر عبد الله و ترعرع حتى صار فتى يافعا وسيما، و لما تهيأت نفس عبد المطلب للمبادرة بتزويج عبد الله اختار آمنة بنت وهب لتكون عروسا مناسبة لابنه، فقد كان موفقا في هذا الاختيار إذ كانت آمنة أجمل فتيات قريش و أكثرهن خلقا كما أن عبد الله كان أحسن فتيانها، و لم تطل إقامة عبد الله مع زوجته إلا أشهرا معدودات، فقد اضطر إلى التأهب للسفر مع إحدى القوافل التجارية المتجهة نحو الشام ، و في طريق العودة إلى مكة أصيب عبد الله بمرض أقعده عن مواصلة السير ، فاضطر إلى النزول في يثرب للعلاج، أما القافلة فسارت بدونه في طريقها حتى وصلت إلى مكة ، و عندما سمع عبد المطلب ما حل بعبد الله أرسل ابنه الآخر الحارث ليحضره إلى مكة، إلا أن الوقت كان متأخرا جدا عندما وصل الحارث إلى يثرب ، فقد وجد أخاه قد فارق الحياة هناك.

و لفقدان آمنة زوجها و والد جنينها الذي سوف تضعه عما قريب كانت غارقة في حزن عميق ، و لم يكن يعلم إلا الله عز و جل أن هذا الطفل اليتيم سوف يصبح في يوم من الأيام نبيا عظيما.

الفيل يأبى أن يتقدم

غزا أبرهة الحبشي اليمن – والحبشة بلد من بلاد أفريقيا – فنصب نفسه حاكما عليها، و بعد قليل تنبه إلى أن جموعا غفيرا من الناس يفدون على مكة في أوقات معينة من كل عام قادمين من كل أرجاء اليمن و من نواحي الجزيرة العربية الأخرى ، فلما استفسر عن سبب ذلك أخبروه بأن الناس يذهبون إلى الكعبة للحج.

استنكر أبرهة أن تحظى مكة بأهمية أكبر من بلده ، فقرر إنشاء كنيسة من الخزف الملون، و لها أبواب من ذهب و نقوش مزخرفة بالفضة، ثم أمر الناس أن يتوجهوا إلى زيارة كنيسته معرضين عن الكعبة ، إلا أن أحدا لم يطعه في ذلك .

فاستشاط أبرهة غضبا ، فقرر أن يهدم الكعبة، و هيأ لذلك جيشا كبيرا يتقدمه فيل ضحم ، ثم زحف في طريقه نحو مكة، و لما سمع أهل مكة بقدوم أبرهة أصابهم الهلع الشديد ، ذلك أن جيشه كان أكبر من أن يقاوموه ، و في ذات الوقت كيف بهم أن يغمضوا أعينهم على أن يهدم أبرهة الكعبة المشرفة؟ فذهبوا إلى رئيسهم عبد المطلب ليستشيروه في هذا الأمر الجلل.

و لما شارف أبرهة على أطراف مكة خرج عبد المطلب لاستقباله، سأله أبرهة قائلا:"ماذا تريد؟"

وكان أبرهة قد استولى على إبل لعبد المطلب وجدها ترعى بنفسها في مرعى عند أبواب مكة، لذا أجابه عبد المطلب قائلا :" أريد أن ترد علي إبلي."

استغرب أبرهة من أمر عبد المطلب كثيرا ، فسأله: "أتكلمني في عدة إبل صادرتها لك ، و تترك بيتا هو دينك و دين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟"

فقال له عبد المطلب في هدوء و اطمئنان:" إنني أملك هذه الإبل و أنا المسؤول عنها، أما الكعبة فهي بيت الله و الله هو المسؤول عن بيته و هو يحميه." ثم انصرف من عند أبرهة عائدا إلى قريش ، و أخبرهم بما حدث، و أمرهم بالخروج من مكة و التحصن في الجبال المحيطة بها خوفا عليهم من معرة الجيش.

و في اليوم التالي لما حان وقت الشروق تهيب أبرهة لاقتحام مكة، فألبس فيله درعا و رتب جيشه ترتيب قتال، و كان يهدف إلى هدم الكعبة من أساسها تماما ثم العودة بعد ذلك إلى اليمن، ولكن في تلك اللحظة حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد برك الفيل فجأة و أبى أن يتحرك ، و حاول الجنود أن يجبروه على القيام من مكانه بالضرب المبرح و الوخز و لكن دون جدوى ، و لما وجهوه راجعا إلى اليمن، قام يهرول، و وجهوه كذلك إلى جهات أخرى فقام يهرول أيضا إلا مكة ، فكان يبرك على الفور.

و ما هي إلا لحظات حتى ظهرت في السماء أسراب من طيور من جهة البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار أمثال الحمص يحملها ، أخذت الطيور ترمي جيش أبرهة بحجارة من سجيل لا تصيب منهم أحدا إلا و يتساقط ، و كان أبرهة من المصابين فهرب في ذعر و خوف مع الناجين من جنوده إلى اليمن و مات هناك بعد مدة من الزمن ، و لما رأى العرب أعداءهم يهربون نزلوا من الجبال التي تحصنوا فيها إلى الكعبة فشكروا الله تعالى.

و بعد هذه الحادثة حظيت قريش باحترام بالغ و اشتهرت بأنها "أهل الله" ، و سمي هذا العام أي عام 570 ميلاديا بـ"عام الفيل" ، ذلك أن الله عز و جل حمى فيه الكعبة ليبعث في المستقبل القريب نبيا مرسلا في قريش.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ؟

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ،

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ،

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ، (سورة الفيل الآيات من 1 إلى 5)

النبي يولد

ذات يوم التقت إحدى القبائل العربية المكية و هي في طريقها نحو الشمال ، براهب منزو على نفسه في الصحراء ، فنزل بعض الرجال عنده ليتحدثوا إليه في أمور ، و كان الراهب من أهل العلم ، فكان العرب كثيرا ما يعرِّجون عليه للأخذ بمشورته.

سألهم الراهب من أين هم يكونون؟ قالوا إنهم من مكة ، فقال إن الله سيبعث فيهم نبيا وشيكا ،

ثم سألوه ما اسم هذا النبي المنتظر ، قال إنه سيدعى محمدا ، و إنه سيوصلهم إلى طراز جديد للحياة.

و في هذه الأثناء أحست آمنة نفسها بمكة و كأنها أقوى الآن و أحسن خصوصا في الفترة التي كانت في انتظار مولودها رغم شعورها بالحزن على وفاة زوجها ، و رأت في هذه الفترة أحلاما كثيرة ، و في إحدى المرات رأت كأنه خرج منها نورساطع و قوي و في أخرى سمعت صوتا يهتف بها :" ستضعين ولدا اسمه أحمد!" ، و لم تنس آمنة هذا الصوت قط و لكنها كتمته ولم تخبر به أحداً.

وضعت آمنة وليدها يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول لعام الفيل ، و قبل مولد أي نبي يشاء الله أن يبعثه ، يجعل لرسالته إرهاصات و بشائر كثيرة يخرجها للناس ، فقد ظهر كثير منها في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول لعام 570 ميلاديا، منها ما رآه علماء اليهود الذين قرؤوا في كتبهم عن مبعث النبي الوشيك، فقد رأى أحدهم مثلا في تلك الليلة بيثرب و هو يرصد السماء نجما ساطعا لم يره من قبل ، فجمع الناس حوله ، ثم قال لهم مشيرا إلى النجم :" طلع الليلة نجم أحمد."

و في ذات الليلة كان يهودي يمر على مجالس قريش ، و يسأل هل ولد فيهم الليلة مولود؟ فإن كان قد ولد فإنه سيكون نبي الأمة العربية.

أرسلت آمنة إلى حميها عبد المطلب خبر ولادتها و كان جالسا ساعتها بجوار الكعبة ، فلما سمع الخبر طار فرحا ، و أخذ يفكر في اسم للوليد مناسب ، فكان لا بد أن يكون اسما غير عادي ، و على الرغم من أنه مر عليه من الوقت ستة أيام إلا أن رأيه لم يستقر على اسم محدد بعد ، و في اليوم السابع بينما هو نائم عند الكعبة رأى في منامه رؤيا مثل ما رأته آمنة من قبل ، سمع فيها صوتا يناديه بأن عليه أن يسمي الوليد محمدا ، و هكذا سمي الصغير محمدا و هو علم منقول من صفة الحمد في معنى محمود و فيه معنى المبالغة.

و عندما أخبر عبد المطلب رجال قريش بأنه أطلق على حفيده اسم محمد قالوا له:" ما حملك على أن تسميه بهذا الاسم ، و ليس من أسماء آبائك و لا قومك ؟"

فأجابهم:" أردت أن يحمده الله في السماء و يحمده الناس في الأرض."

قضاء فترة عند حليمة

عزمت آمنة مثل غيرها من النساء بمكة على أن تدفع طفلها في مراحل حياته الأولى بعيدا عن جو مدينة مكة الخانق إلى البادية حيث الجو المفتوح أنقى و المعيشة أصح ، وكانت المرضعات البدويات يقبلن على مكة يلتمسن الأطفال الرُّضَّع حديثي الولادة و يعرضن خدماتهن على الموسرات ليرضعن أطفالهن و يعتنين بتربيتهم حتى يكبروا و يصيروا يفعة مقابل مبالغ كبيرة يدفعها لهن آباؤهم و أمهاتهم الموسرون .

و في العام الذي ولدت آمنة طفلها ،كانت من بين المرضعات اللاتي وفدن على مكة بدوية تدعى حليمة، أتت و معها زوجها و ابن لها صغير فكانا فقيرين قد عانيا من الفقر ما عانيا و لكن تلك السنة كانت أصعب عليهما من ذي قبل إذ كانت سنة جدباء لم تبق لهما شيئا و لا تذر حتى الحمارة التي ركبت حليمة على ظهرها في طريقها إلى مكة أصابها هزال شديد من الجوع مما جعلها تتعثر كثيرا في سيرها، و كذلك كان ابن حليمة الصغير يبكي بكاء لعدم استطاعتها إرضاعه بالقدر الكافي من لبنها، و حتى ناقتهم لم تبض بقطرة فكانت حليمة في حيرة من أمرها و لم تدر ماذا تفعل ، و تتساءل في نفسها :"كيف بي أن أرضع طفلا آخر غير ابني في الوقت الذي لا أملك ما يكفي طفلي من اللبن؟"

و في النهاية وصلوا إلى مكة ، فما بقيت من مرضعات بني سعد امرأة إلا و أخذت معها رضيعا إلا حليمة ، و الطفل الرضيع المتبقي الوحيد كان محمدا صلى الله عليه و سلم و كان الأب في الغالب هو الذي يدفع أجرة المرضع و لكن أبا محمد صلى الله عليه و سلم لم يكن على قيد الحياة، لذا فلم تقبل واحدة من المرضعات بمن فيهن حليمة على محمد صلى الله عليه و سلم و إن كان ذا نسب عريض في قريش ، إلا أنها لم تجد غيره و كرهت أن ترجع من بين صاحباتها و ليس معها رضيع، فسألت زوجها عما إذا كان يقبل أن تأخذ معها محمدا اليتيم صلى الله عليه و سلم أم لا ، فأوصاها به قائلا:" لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة."

و في طريق العودة لما وضعت حليمة محمدا صلى الله عليه و سلم في حجرها أقبل عليه ثديها بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، و شرب معه ابنها حتى روى.

و لما عادوا إلى دارهم بدأ كل شيء يتغير فقد اخضرت الأرض و كثرت الخيرات في ثمار النخيل التي هي غذاؤهم الرئيس, و صارت ضروع أغنامهم و نوقهم المسنات تمتلئ لبنا و كانت حليمة و زوجها تعيان جيدا بأن هذه البركة إنما تصيبهم بإذن الله بفضل هذا الطفل الرضيع محمد صلى الله عليه و سلم الذي أتيا به معهما ، فأحباه كثيرا و تعلقا به و كأنه ابن لهما.

و لما دخل محمد صلى الله عليه و سلم عامه الثاني عادت به حليمة إلى أمه غير أنها ترجتها أن تسمح بمكثه بعض الوقت فيهم مرة أخرى فقبلت آمنة بكل رضى و ردته معهم.

و خلال الفترة التي مكث محمد صلى الله عليه و سلم عند أسرة حليمة في البادية لعب مع أولادها و رعى الأغنام معهم و في أوقات أخرى غيرها كانت حليمة كثيرا ما تجده يجلس وحيدا.

و يروى أنه في إحدى المرات أتاه ملكان فغسلا قلبه بماء الثلج ، حيث شاء الله أن يطهر قلبه بذلك ،كما شاء أن يكون لمحمد صلى الله عليه و سلم أعظم شأن فيمن مضى من الخلق و أن يكون خاتم النبيين.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ

الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ

(سورة الانشراح الآيات من 1 إلى 7)

و في نهاية المطاف عادت حليمة بمحمد صلى الله عليه و سلم إلى آمنة و قد صار غلاما يافعا يتمتع بصحة جيدة ، و كان لا بد له أن يتذكر فيما بعد تلك الأيام الجميلة التي قضاها عند حليمة و أن يعد نفسه واحدا من بني سعد.

طفولة اليتيم

و لما بلغ محمد صلى الله عليه و سلم عامه الثالث من عمره عاد إلى مكة ليعيش بعد ذلك في أحضان أمه ، و بعد مرور ثلاث سنوات أرادت السيدة آمنة أن تأخذ معها ابنها لزيارة أخواله في يثرب، و طلبت من خادمتها "بركة" أن تعد كل ما يحتاجون إليه من زاد و معن في سفرهم الطويل، ثم التحقوا بإحدى القوافل المتجهة إلى يثرب.

و مكثوا في يثرب شهرا ، و قد استمتع محمد صلى الله عليه و سلم بزيارته لأبناء أخواله حيث كان المناخ هناك متميزا و تعلم السباحة و تطيير الطائرات الورقية في الهواء، و لكن عند عودتهم إلى مكة مرضت السيدة آمنة ، ثم فاضت روحها إلى خالقها ، و دفنت بقرية "الأبواء" الواقعة بالقرب من مدينة يثرب، و رجع محمد صلى الله عليه و سلم مع جارية أمه "بركة" حزينا إلى مكة ، و كان قد بلغ السادسة من عمره وقتذاك حينما أصبح يتيم والديه جميعا، فكفله جده بعد ذلك و أحاطه بعطف كبير، و حنان كثير، و أحبه أكثر من روحه وتعلق محمد صلى الله عليه و سلم بجده، فصار لا يكاد يفارقه حتَّى في مجالسه مع كبار قومه في منتديات قريش ومجالسها.

و كان من عادة عبد المطلب أن يُفْرَشَ له فراشٌ عند الكعبة ليجلس عليه، و يكثر الرجال حوله ليتحدثوا إليه دون أن يجلس أحد منهم على فراشه و مع ذلك فقد كان المستثنى الوحيد من هذا المحظور حفيده المحبوب محمد صلى الله عليه و سلم مما يدل دلالة واضحة على مدى حب بعضهما للآخر، فقد سمعوا عبد المطلب غير مرة و هو يقول: "دعوا ابني فوالله إن له شأنا"

مرت سنتان و أصيب عبد المطلب بمرض أقعده على فراشه، فلازمه محمد صلى الله عليه و سلم بجواره ، و لم يفارقه لحظة و طلب عبد المطلب من ابنه أبي طالب أن يكفل محمدا و يرعاه بعد وفاته ، ثم توفي بعد ذلك بمدة قصيرة ، فتحول محمد إلى دار عمه أبي طالب، و كان أبو طالب كثير العيال ولكن محمدا صلى الله عليه و سلم سرعان ما تأقلم معهم فأصبح واحدا من أفراد العائلة و أحبهم إلى نفوسهم.

كان الوقت قد حان لتهيئ قريش قافلة تخرج في سفر إلى أرض الشام ،

و التحق بها أبو طالب و معه محمد صلى الله عليه و سلم، و كانت هذه أول مرة يخرج فيها محمد صلى الله عليه و سلم نحو الشمال و بعد سفر دام أياما حلت القافلة بسوق يتسوق فيه العرب و الروم قرب بلاد الشام و كان هناك راهب يدعى بحيرى يعيش في صومعة له بالقرب من السوق ، و في تلك الصومعة عاش قبل بحيرى رهبان آخرون منذ مئات السنين ، لذا كانت الصومعة تضم كتبا قديمة .

رأى بحيرى القافلة من على بعد ، فأخذه الذهول لمِاَ رأه من أن غمامة بيضاء كبيرة تظل القافلة ، فكانت هي القطعة الوحيدة في قلب السماء الزرقاء مما يوحي و كأنها تظل أحدا ما في القافلة ، و زاد من دهشة الراهب أن رأى الغمامة تسير مع القافلة إلى أن جلس الشخص الذي تظله فيها تحت شجرة ثم تلاشت، و كان بحيرى على علم من خلال الكتب التي قرأها بأن مبعثَ نبي بعد عيسى عليه السلام أصبح وشيكا ، لذا فقد صار يأمل أن يرى ذلك النبي قبل أن يرحل من هذا العالم ، و لما تأكد من أن ما شاهده هو عين المعجزة علم بأن ما يأمله يمكن أن يتحقق.

و دعا الراهب القرشيين إلى تناول الطعام عنده ، و تعجب القوم من صنيعه هذا ، لأن بحيرى لم يسبق له أن دعاهم إلى الطعام قط و لم يحتف بهم على الرغم من أنهم مروا من هنا مرارا و تكرارا من قبل، و لما اجتمع القوم للطعام سألهم الراهب: " هل تخلف منكم أحد ؟"

أجاب أحدهم بـ"لا" ثم استمر المجيب في كلامه قائلا:" تخلف غلام صغير السن يحرس الجمال"، هنا ألح الراهب على أن يحضر الغلام أيضا إلى الطعام ، و لم يكن ذاك الغلام غير محمد صلى الله عليه و سلم، ولما حضر محمد صلى الله عليه و سلم للطعام لم ينطق الراهب بكلمة و لكنه ظل يتفحصه ببصره و هو يتناول طعامه و لاحظ بحيرى وجود علامات كثيرة على مظهره تتفق مع ما يرد ذكره في الكتب القديمة ، و من ثَمَّ طلب منه أن يجلس بقربه فسأله أسئلة كثيرة ، ثم ما لبث أن بدا له ما يحس به محمد صلى الله عليه و سلم إزاء الأصنام في الكعبة، و لما عمد بحيرى إلى أن يختبر محمدا كي يحلف باللات و العزى كسائر العرب قال له محمد صلى الله عليه و سلم: " فوا لله ما أبغضت شيئا قط بغضهما " ثم تحدثا معا عن الله عز و جل و عن سيرة محمد صلى الله عليه و سلم و عن سيرة أسرته ، فلم يُبْقِ ما سمعه بحيرى من محمد من شك عنده في أن هذا الغلام هو ذلك النبي المنتظر بعد عيسى عليه السلام.

ثم أقبل الراهب على أبي طالب ، فقال له : " ما هذا الغلام منك؟" قال أبو طالب: " إنه ابني" فقال له بحيرى: " ما هو بابنك، و ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا" ثم طلب منه أن يحذر عليه بدقة شديدة.

هناك روايات كثيرة تتحدث عن مرحلة شباب محمد صلى الله عليه و سلم و بعض هذه الروايات تروي لنا كيف كان محمد صلى الله عليه و سلم يرعى الأغنام و يعاملها بكل رفق و شفقة بالغة و يجلس مكانه يتفكر و يتأمل في ملكوت الله تعالى و أسرار الطبيعة بينما هي ترعى الكلأ و أنه خلافا لمن حوله من الناس لم يعبد الأصنام و لم يقسم بها قط، بالإضافة إلى أنه كان يتساءل و يتعجب كثيرا: لماذا يقتل الناس بعضهم بعضا من أجل النفوذ و السلطة و النقود؟ ثم يشعر بحزن عميق و وِحدة قاتلة ، إلا أنه لم يكن يفضي بهذه الأحاسيس إلى أحد، و كان شابا هادئا دائم التفكير نادرا ما كان يلعب مع أقرانه من الشباب.

و مع هذا فقد ذهب ذات مرة مع عدد من الشبان إلى حفل للزواج ، و لما وصلوا إلى دار العرس سمع هناك أصوات المعازف و الرقصات ، و ما إن أوشك أن يدخل الدار حتى شعر بإرهاق شديد ، فنام على الفور في المكان الذي كان فيه ، و في صباح اليوم التالي لم يقم من نومه إلا و قد سقط عليه ضوء الشمس فكان قد فاته الحفل ، و هكذا حماه الله أن ينشغل بأعمال تافهة لأنه شاء أن يكرمه بشيء أهم من ذلك كله.

زواج النبي صلى الله عليه و سلم

لما بلغ محمد صلى الله عليه و سلم عمره الخامس و العشرين اشتهر بين قومه بأمانته، و الكل يحترمه بمن فيهم شيوخ قريش و ازداد صفاء طبعه عاما بعد عام ،وكأنه يتلقى علما غيبيا لا يتلقاه غيره ، فهو يؤمن بإله واحد خالق لهذا الكون و يعبده بكل كيانه و من كل قلبه، و كان أكمل و أروع شخص في قومه و أشفق قريش و أصدقهم و آمنهم ، و عرف بين قريش بـ" الأمين" لخصال وهبه الله عز و جل إياها ، فكم من أوقات قضاها في خشوع في غار حراء بجبل النور الواقع بالقرب من مكة متأملا و متفكرا في ملكوت الله تعالى!

و كانت في قريش سيدة ذات نبل و شرف و مال تعمل في التجارة تدعى خديجة ، و بلغ سمعها سمعة محمد صلى الله عليه وسلم الطيبة فأرسلت إليه تعرض عليه أن يذهب في مالها إلى أرض الشام ليبيعه هناك ، فأبدى محمد صلى الله عليه و سلم موافقته على ذلك ثم خرج في قافلة لخديجة إلى أرض الشام يصحبه خادمها ميسرة، و في الطريق قضيا معا أوقاتا سعيدة في أحاديث ممتعة، مما أثار فيما بعد إعجاب ميسرة بشخصية محمد صلى الله عليه و سلم لما رآه فيه من أنه يختلف عن رجال قريش كلهم.

و في أثناء هذه الرحلة وقعت حادثتان غريبتان حيرتا ميسرة ، وقعت أولاهما لما توقفا للاستراحة بجوار صومعة لراهب وسط أرض مقفرة ، فبينما كان ميسرة منشغلا ببعض الأمور جلس محمد صلى الله عليه و سلم تحت ظل شجرة، فاطلع الراهب إلى ميسرة ثم سأله قائلا: "من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟"

قال له ميسرة: " هذا رجل من قريش من أهل الحرم."

فقال له الراهب: " ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي."

و وقعت الحادثة الثانية في طريق عودتهما إلى مكة ، إذ رأى ميسرة وهو على البعير خلف محمد ﷺ وقت الهاجرة

و الحر لافح ملكين يظلانه ﷺ من أشعة الشمس الضارة.

و كانت هذه التجارة ناجحة و موفقة كل التوفيق فقد ربح محمد فيها أضعاف ما كانت خديجة تربح في أية مرة سابقة ، و لما عادا إلى مكة قص ميسرة على خديجة كل شيء عن الرحلة و انتطباعاته عن شخصية محمد صلى الله عليه و سلم و سلوكه الكريم.

و كانت خديجة أرملة في عمرها الأربعين و ذات شرف و حسب و مال و على قدر كبير من الجمال ، فكم من رجل تقدم إليها طالبا يدها للزواج و لكنها رفضتهم جميعا لأنه لم يكن منهم أحد كفءاً لها ، و لما تعرفت على محمد صلى الله عليه و سلم اقتنعت بأنه شخص له خصال خاصة تميزه عن غيره من الرجال ، فأرسلت صاحبة لها تسأله عما يمنعه أن يتزوج إلى هذا الوقت ،

فقال لها محمد صلى الله عليه و سلم: " ما بيدي ما أتزوج به." فقالت له صاحبتها: " فإن كفيت ذلك و دعيت إلى المال و الجمال و الشرف و الكفاية ألا تجيب؟" هنا تشوق محمد إلى معرفة من أومأت إليها المرأة فسألها: "فمن هي؟" فلما أخبرته بأنها خديجة بنت خويلد، شعر محمد بفرح شديد لأنه كان يكن لخديجة كل التقدير و الاحترام فذهب مع عميه أبي طالب و حمزة إلى عم خديجة يطلب يدها ، فلما أذن له عمها بذلك تم زواجهما خلال فترة قصيرة.

و كان هذا الزواج موفقا ، وذلك لأن كلا من محمد و خديجة كان كفئا للآخر ، ومع ذلك فقد تخلل حياتهما المشتركة بعض الأحزان في فترات ، حيث رزقهما الله بستة أولاد اثنين من الذكور و أربع بنات و المحزن في الأمر أن مولودهما الأول قاسما مات بعدما دخل في عامه الثاني مباشرة ،كما مات آخر العنقود من أولادهما بعد ولادته بفترة قصيرة جدا ، هذا من جهة، و من جهة أخرى كان من دواعي سرورهما أن عاشت كل من بناتهما الأربع زينب ، و رقية ، و أم كلثوم ، و فاطمة رضي الله عن الجميع.

عاش محمد ﷺ بمكة تاجرا عدة سنوات في عيشة كلها ملء هدوء و اطمئنان و انتفع بعلمه هناك عدد غير قليل من الناس و كذلك كان على حاله هذه حينما عقدت قريش العزم و اتفقت على إنشاء الكعبة من جديد ، و كان من الصعب جدا اتخاذ هذا القرار نظرا لما يستدعي ذلك منهم أن يهدموا الكعبة ، و أما الناس فقد هابوا هدمها لأنهم خشوا أن يغضب الله عليهم لهدم معبده، و في النهاية حسم الأمر أحد الحكماء من شيوخ قريش ، بأن بادر بتوجيه الضربة الأولى لهدم الكعبة فتبعه الكل بعد ذلك فيه.

و ظل الجميع يعملون حتى وصلوا إلى القاعدة الأولى التي وضعها إبراهيم عليه السلام ، ولكنهم حينما حاولوا أن يخرجوا الحجارة من مواضعها أخذت مكة تهتز بشدة عن بكرة أبيها ، فقد بلغ بهم الهلع و الدهشة مبلغا جعلهم يبقون الحجارة في مواضعها.

و جمعت كل قبيلة الحجارة حتى بنوا الكعبة إلى أن بلغ البنيان الموضع الذي تقرر أن يوضع فيه الحجر الأسود ، ثم اختصموا فيمن يحق له من القبائل أن يتشرف بحمل الحجر الأسود و وضعه في أحد أركان الكعبة الأربعة و كاد أن ينشب بينهم قتال لو لا أن اقترح أحد أهل الحرم على المتخاصمين حلا يخرجهم من المشكلة ، فكان يقضي اقتراحه أن يحكم بينهم أول من يدخل الحرم ، فوافقوا عليه، فزاد من فرحهم و رضاهم أن رأوا أن محمدا ﷺ هو أول من دخل عليهم في الحرم، لأنهم كانوا يثقون جميعا في أمانته.

و لما أخبروه الخبر طلب منهم أن يأتوا إليه بقطعة قماش كبيرة فأتوا بها و بعدما فرشها على الأرض وضع الحجر الأسود وسطها ثم طلب أن يمسك من كل قبيلة رجل بطرف من أطرافها ، و أن يرفع هؤلاء الرجال المختارون معا الحجر الأسود إلى الموضع الذي يريدون أن يضعوه فيه ، و لما نفذوا ما طلبه منهم أبعد قطعة القماش من فوق الحجر الأسود فوضعه في موضعه بنفسه.

و هذه الحادثة إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى احترام رجال قريش كلهم له و ثقتهم فيه كما تدل على مدى مقدرته القائقة على حفظ السلم و الأمن بحكمته و رجاحة عقله.

نزول جبريل الملك الموكل بالوحي

كان محمد صلى الله عليه و سلم يؤمن بالله الواحد الأحد و بأنه خالق الشمس و القمر و الأرض و السماوات و كل كائن حي و بأن الناس يجب أن يعبدوه وحده دون أن يشركوا به أحدا، و صار يكثر من الخروج من مدينة مكة المزدحمة إلى الغار بجبل حراء ، فقد حبب إليه المكوث فيه بعيدا عن كل ما يشغل البال من الأمور الدنيوية و الحياة اليومية قانعا بأقل القليل من الطعام و الشراب.

و في عامه الأربعين غادر محمد صلى الله عليه و سلم مكة على عادته كل عام و هو متجه إلى غاره و عازم على قضاء شهر رمضان منزويا على نفسه هناك ، ولما انتصف رمضان أخذت رسالة الله إلى البشرية تعرف طريقها عن طريق الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه و سلم ، فقد نزل أول الوحي على النحو التالي: جاءه الملك الموكل بالوحي جبريل و هو في غار حراء فقال له آمرا: " اقرأ "

فرد محمد صلى الله عليه و سلم: " ما أنا بقارئ " فأخذه جبريل بين ذراعيه فضمه إليه بقوة حتى بلغ منه الجهد ، ثم تركه ، فقال له مرة أخرى " اقرأ "

فلما أجابه محمد صلى الله عليه و سلم بـ: " ما أنا بقارئ." أخذه جبريل عليه السلام ثانية فضمه إليه بقوة ، فأمره ثالثة: " اقرأ " و لكن محمدا صلى الله عليه و سلم لم يدر ماذا يقرأ كما في المرتين السابقتين ، فضمه إليه الملك ثالثة ، و لكنه بعد أن ترك محمدا صلى الله عليه و سلم هذه المرة، أخذ يقول:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (سورة العلق الآيات من 1 إلى 5)

كرر محمد صلى الله عليه و سلم ما تلاه عليه جبريل عليه السلام من الآيات المباركة كلمة بكلمة ، فلم يغادره جبريل إلى أن تأكد من أنه حفظها عن ظهر قلب.

و الآن بعد أن اختفى جبريل عليه السلام عن محمد صلى الله عليه و سلم اختلى هناك وحده في الغار ، و لم يكن بمقدوره أن يفسر ما حدث له بأي شيء ، فأصابه الهلع الشديد فخرج من الغار مسرعا ، يا ترى هل اعتاد الجن الغار أم أصابه مس من الشيطاين؟

لحظتها سمع صوتا من السماء يقول: " يا محمد ...أنت رسول الله ، و أنا جبريل." فوقف يرفع رأسه إلى السماء و ينظر ، فإذا جبريل في كل وجهة هو يولّي وجهه إليها .

و عاد إلى خديجة في داره في دهشة و ذهول ، فلما رأته زوجته يرجف و كأنه أصيب بحمى خافت عليه خوفا شديدا ، ثم طلب منها أن تغطيه بغطاء، ففعلت، و ما هي إلا برهة إلا و قد استراح ، و هدأ خوفه بقدرٍ مكَّنَه من أن يحدِّث عما صار له و هو في غار حراء ، فصدقته خديجة في كل ما نطق به ، ثم قالت بكل إجلال: " أبشر يا ابن العم

و اثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة." و هدأت نفس محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم بما أبدته خديجة من الإيمان الصادق بكل ما قال لها و لكنه كان منهكا إلى أبعد الحدود بعد كل الذي صار له من هذه الحادثة الجسيمة ، فسلم نفسه لسلطان نوم عميق.

و بينما هو غارق في نومه خرجت خديجة إلى مقابلة ابن عمها ورقة بن نوفل تريد أن تأخذ رأيه فيما حدث لزوجها، لأنه كان رجلا عالما قد قرأ كتبا كثيرة و اعتنق النصرانية بعد أن درس الإنجيل ، و له فيها علم كثير، أخبرها ورقة بأن محمدا صلى الله عليه و سلم اصطفاه الله ليكون رسولا نبيا له ، فكما أن الملك الموكل بالوحي أرسله الله على موسى قبله و أمره أن يرشد قومه فإنه أرسله الآن على محمد صلى الله عليه و سلم ليكون نبي هذه الأمة ، ثم أخبرها بأنه لن يتبعه كل الناس و حذر من أن بعضهم سوف يضطهدون أتباعه و يؤذونهم و عليه أن يصبر و يتحمل أذاهم لأنه يحمل رسالة عظيمة الشأن تخاطب العالم بأسره.

و منذ ذلك اليوم كثيرا ما تردد جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و الآيات المباركة التي علمه إياها – أي تلك الرسائل الإلهية التي أوحاها الله عز و جل إلى بشر– تم تدوينها و ضبطها في أوراق وصلتنا على هيئة القرآن الكريم.

المسلمون الأوائل

و بعد ذلك اليوم الخطير من شهر رمضان المبارك توالى نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه و سلم ، فقد أصبح الآن يعلم جيدا ماذا عليه عمله و أخذ يعد نفسه لما سوف يقع لاحقا من الأحداث الجسام ، حقا إنه لا يصح أن يكلف بتبليغ رسالة الله إلى البشرية إلا رجل قوي و شجاع نظرا لأن الناس في غالب الأحيان لا يستجيبون الدعوة إلى الله عز و جل بسهولة.

و كانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن به و أقر بأن كل ما أتى به من عند الله حق ، و بها هون الله عز و جل على نبيه مواجهة الأحداث فقد آزرته و ثبتته في نشر دعوته و قاومت أولئك الأشخاص الذين وقفوا ضده ببسالة.

ثم انقطع الوحي مدة و الرسول صلى الله عليه و سلم تملكه الحزن و الضيق ، ظنا منه أن الله عز و جل تركه أو ما عاد يراه أهلا لحمل رسالته لعمل ما بدر منه فأبغضه، و لكن جبريل الملك الموكل بالوحي عاد إليه مرة أخرى فأتاه بهذه السورة من القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَى

وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (سورة الضحى الآيات من1 إلى 11)

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو من يثق بهم و من هم بقربه إلى الله سرا ، و كانت مكة في تلك الأيام تمر بأزمة اقتصادية حادة ، فلم يبق فيها إلا القليل من التموين ، و كان عمه أبو طالب الذي كفله بعد وفاة جده و أخذه إلى داره يجد صعوبة بالغة في توفير ما يكفي عياله الكثير من الطعام ، فأبدى رسول الله صلى الله عليه و سلم و عمه الثاني الموسر العباس رضي الله عنه رغبتهما في أن يربي كل منهما واحدا من عيال أبي طالب تخفيفا عليه ، و على ذلك فقد أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا ، و أخذ عمه جعفرا.

و في أحد الأيام بينما كان النبي صلى الله عليه و سلم خارج مكة بدا له جبريل عليه السلام ، فضرب بجناحيه في سفح تلة ، فخرج نبع ماء، فغسل جبريل أجزاء من جسمه في الماء الجاري ليري النبي صلى الله عليه و سلم عمليا طريقة الوضوء قبل الصلاة ، ثم علمه تطبيقيا كيفية أداء كل ركن من أركان الصلاة في الإسلام واحدا وحدا ، هذه الأفعال العديدة التي يجب القيام بها في مواضع فيها و الأشياء التي لا بد أن تقال في كل منها، و لما عاد النبي صلى الله عليه و سلم إلى داره علّم خديجة ما تعلمه على يد جبريل أولا ثم علمه لمشاهديه ثانيا ، و منذ ذلك الوقت لا يزال المسلمون يتطهرون من ذنوبهم بأن يتوضؤوا قبل الصلاة و يقتدون بهدي النبي صلى الله عليه و سلم في هذه الأفعال التي قام بها أول مرة و الأدعية التي قالها أول مرة .

و في بادئ الأمر كان النبي صلى الله عليه و سلم و زوجته خديجة هما فقط يعلمان عن أمر الإسلام ، إلا أن عليا دخل عليهما ذات يوم فرآهما يصليان فسألهما في استغراب ماذا يفعلان، فأخبره النبي صلى الله عليه سلم بأنهما يحمدان الله و يشكرانه ، فأمضى علي تلك الليلة وهو يفكر في شأن ما قاله رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و كان يغتبط بابن عمه اغتباطا و يحترمه احتراما ، فاتخذ قراره في النهاية و أتى إلى النبي صلى الله عليه و سلم في اليوم التالي يخبره بأنه يرغب في اتباعه ، و هكذا صارت خديجة أول امرأة اعتنقت تعاليم الإسلام التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه و سلم من عند الله ، كما صار علي أول صبي دخل فيه ، و بعد مدة قصيرة انضم إليهما زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم ومعتقه الذي تبناه فيما بعد.

و في تلك الأيام كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا حضرت الصلاة يخرج من مكة و معه علي بن أبي طالب يصليان الصلوات خارجها ، ثم إن أبا طالب مر عليهما يوما و هما يصليان فتوقف ليسأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عما يفعلان: " ما هذا الدين الذي أراكما تدينان به؟" ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه و سلم بأنهما يصليان و أنهما على دين إبراهيم عليه السلام و أنه مبعوث من الله به رسولا إلى العباد ليدعوهم إلى الهدى ، شأنه في ذلك شأن إبراهيم عليه السلام ، ثم التفت أبو طالب إلى ابنه علي فقال : "إن محمدا لم يدعك إلا إلى خير ، فالزمه ، أما أنا فلا أستطيع أن أفارق ديني و دين آبائي" ثم أدار وجهه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال:" و لكن و الله لا يُخْلَصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ."

و في هذه الأثناء بلغ أبا بكر أصدق تاجر في قريش و أعلمهم و أكثرهم احتراما أخبار تفيد أن محمدا صلى الله عليه و سلم بعث رسولا ، و كان يعرفه عن قرب و يؤمن بأنه لن يكذب أبدا ، فذهب للتأكد من صحة ما شاع بين الناس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم:" يا أبا بكر إني رسول الله و نبيه بعثني لأبلغ رسالته جميع الناس و أدعوهم إلى عبادة الله و حده لا شريك له" ، فما إن سمع أبو بكر ذلك من رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى صدقه في كل ما سمعه منه و آمن به على الفور، و يروى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فيما بعد :" ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة و تردد و نظر إلا أبابكر ما عتّم حين ذكرته له و ما تردد فيه."

و لعلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه و صدقه و شفقته كان الناس يفدون على بابه لأخذ مشورته في شؤونهم ، لذا فقد كانت له شخصية مؤثرة تمخض عنها أن دخل على يده عدد من الناس في الإسلام ، بمن فيهم عم والدة الرسول صلى الله عليه و سلم سعد بن أبي وقاص ، فقد رأى سعد قبل الليلة التي قام فيها أبو بكر رضي الله عنه بزيارة له ليحدثه عن الإسلام بليلة واحدة في منامه أنه يسير في الظلمات و هو يتخبط فيها ، إذ رأى قمرا ، فاتبعه ، وقد سبقه إلى هذا القمر ثلاثة ، هم : زيد بن حارثة مولى الرسول صلى الله عليه و سلم و معتقه و علي بن أبي طالب و أبو بكر الصديق جاؤوا إليه و أشاروا عليه أن ينضم إليهم ، و لما حدثه أبو بكر الصديق عن دين الرسول صلى الله عليه و سلم فهم مغزى حلمه ذاك ، فأسرع إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم على الفور ليعلن إسلامه فكان سعد قد وعى جيدا أن الإسلام يعني الاستسلام لإرادة الله عز و جل فقط و الإخلاص له في عبادته وحده لا شريك له.

و بلال هو الآخر من الذين دخلوا في دين الله على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، و ذلك أن أبا بكر ذهب في إحدى الليالي إلى دار أمية بن خلف أحد أشراف قريش و لحظتها كان أمية غائبا عن داره و لما اختلى أبو بكر في الدار وحده وجد فيها مولى أمية بلالا

فحدثه عن الإسلام ، فأعلن بلال إسلامه قبل أن يهم أبو بكر الصديق بمغادرة الدار.

و أخذ يزداد عدد الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما بعد يوم ، و كانوا في بعض الأحيان يخرجون جميعا إلى شعاب مكة ليستمعوا إلى تلاوة رسول الله صلى الله عليه و سلم القرآن الكريم و ليتعلموا آياته منه، و كان كل ذلك يتم في سرية تامة فلم يعرف الإسلام في تلك الأيام إلا شرذمة قليلة من الناس تعد بالأصابع.

و تبدأ المعانات

و بعد أن مضى على الإسرار بالدعوة ثلاث سنوات جاء جبريل يوما إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمره أن يجهر بالدعوة ، فبادر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى امتثال أمر ربه ، حيث قال لرجال قريش إن لديه أمرا جد خطير يريد أن يحدثهم فيه ، ثم صعد على الصفا ، فعلا أعلاها فاجتمعوا حوله ليسمعوا ما سوف يلقيه عليهم .

بدأ كلمته بسؤالهم: " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا : " نعم ، إنا لمصدقوك ، فما جربنا عليك كذبا" فقال ما معناه : " إني رسول الله بعثني لأدلكم على الهدى و على طريق العبادة الخالصة له وحده لا شريك له فإن أبيتم فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" ، فقام أبو لهب من بينهم ، وقال: " تبا لك! ألهذا جمعتنا؟" فأنزل الله تعالى في شأنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (سورة المسد الآيات من 1 إلى 5)

فانصرف الناس و بقي رسول الله صلى الله عليه و سلم وحيدا هناك.

ولكنه لم يفشل و لم تضعف عزيمته ، بل حاول أن يكرر دعوته مرارا ، فقد أقام بعد أيام قليلة وليمة لعامة أعمامه ، و لما فرغوا من الطعام ألقى عليهم كلمة قال فيها: " يا بني عبد المطلب، ما أعلم أن إنسانا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ،

فقد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة ،و قد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟"

فظلوا ساكتين ، و جل سكوتهم ، فقام علي ابن عمه و قال : " أنا يا نبي الله أؤازرك على هذا الأمر." فقام القوم و انصرفوا و هم يتضاحكون استخفافا بأن غلاما صغيرا فقط رضي أن يؤازره.

و على الرغم من أن معظم قومه و أعمامه لم يصغوا إلى دعوته إلا أنه ظل يجتمع بالمؤمنين سرا في دار بالقرب من تلة الصفا ، يصلي بهم و يعلمهم تعاليم الإسلام.

و المؤمنون يتعرضون لمضايقات الكفار في بعض الأحيان مع أنهم لم يكونوا يكشفون لهم عن أمرهم.

غير أن هذه المضياقات انتهت في إحدى المرات إلى قصة اهتداء مفاجئ إلى الإسلام ، ففي أحد الأيام كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في طريقه يتحدث مع أصحابه إذا بأبي جهل أحد زعماء قريش الذي كان يكرهه و يكره ما يعلمه للمؤمنين يعترض طريقه ، فيشتمه و ينال من الإسلام بكلام معيب ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، بل مضى في طريقه .

فلما سمع حمزة أحد أعمام رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك المحارب الشجاع القوي الذي يخافه الناس أن ابن أخيه تعرض للشتم و الإهانة احتمله الغضبُ، فخرج سريعا قاصدا الكعبة يريد أبا جهل وهو جالس لحظتها هناك مع الآخرين فأقبل نحوه فضربه بقوسه ضربة و هو يصرخ في وجهه: " أ تشتمه فأنا على دينه ، أقول ما يقول؟ فرد ذلك علي إن استطعت " ، فقام رجال قريش إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال لهم أبو جهل: " دعوا حمزة فإني و الله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا" حتى أوقفهم.

غير أن زعماء قريش لم يلبثوا أن تملكهم الغضب من جديد لما رأوا رسول الله صلى الله عليه و سلم يواصل نشر دعوته فذهب وفد منهم إلى أبي طالب و كان قد أقسم على أن يحميه ، فطلبوا منه أن يكف محمد صلى الله عليه و سلم عن مهاجمة آلهتهم و عيب دينهم و تسفيه معتقدهم ، مقابل أن يفعل هو ما يشاء في دينه.

و لكنهم لما رأوا أن هذه المقابلة لم تفدهم شيئا و لم يحدث أي تغير في دعوة محمد صلى الله عليه و سلم ذهبوا إلى أبي طالب مرة أخرى و هددوه هذه المرة بإعلان حرب عليهما معا إن لم يمنع ابن أخيه عن دعوته ، فأهمه العداء الذي صار بين قبيلته و ابن أخيه هما شديدا

فنادى محمدا صلى الله عليه و سلم و أخبره بما حدث و قال: " ابق على نفسك و علي و لا تحملني من الأمر ما لا أطيق."

فظن الرسول صلى الله عليه وسلم أن عمه ربما تخلى عن نصرته فحرمه من حمايته ، و مع ذلك رد عليه قائلا : " و الله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" ، فرق له أبو طالب و قال: "اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك إلى شيء تكرهه ما حييت" فقد شجعه بقوله هذا على نشر دعوته ، و منذ ذلك اليوم رفض أبو طالب بشدة أن يخضع لمطالب زعماء قريش أن يتخلى عن حماية ابن أخيه مهما جربوا معه من سبل ليقنعوه في ذلك.

فلما رأى أعداء الإسلام أن كل هذه السبل غير مجدية بدأوا في تعذيب الفقراء و الضعفاء و الذين لا ناصر لهم من الأقوياء بهدف أن يحملوا محمدا صلى الله عليه و سلم و أصحابه على أن يرتدوا عن الإسلام ، و كان بلال مولى أمية بن خلف أحد هؤلاء المستضعفين ، فقد كان سيده يذهب به إلى وسط الصحراء و يقيد يديه و ساعديه ثم يضع على صدره صخرة كبيرة ، فيتركه تحت الشمس المحرقة ، و من حسن حظه أنه صادف ذات يوم أن مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالقرب منه ، فرأى كيف أن أمية يعذبه و يسومه سوء العذاب ، فاشتراه منه مقابل أموال طائلة دفعها لأمية ثم أعتقه في سبيل الله.

غير أن المسلمين الذين صاروا يتعرضون للتعذيب على أيدي الكفار لم يكونوا كلهم محظوظين حظ بلال بل أوذي معظمهم و ذاقوا أشد العذاب و لكن ذلك لم يثن عزيمتهم بل تحملوا و صبروا ، لإيمانهم بأنهم على حق و أنهم سوف يكافأون في الدار الآخرة مكافأة تفوق كل ما يمكنهم أن ينالوه في هذه الحياة الدنيا من سعادة.

الملك الذي آمن

و كلما ازداد عدد الذين تابعوا النبي صلى الله عليه و سلم يوما بعد يوم ، احترق الأعداء غيضا عليهم مما دفع بعض المسلمين إلى أن يعقدوا العزم على الرحيل إلى بلاد أخرى عسى أن يجدوا فيها من الأسباب ما يمكنهم من العيش في أمن و استقرار ، و كان قد مضى على نزول جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم بأول الوحي خمسة أعوام و على جهره بالدعوة عامان بعد ، و لما استأذن المسلمون رسول الله صلى الله عليه و سلم في مغادرة مكة أذن لهم و هو يقول : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، و هي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه."

تأهب المسلمون للسفر ، و اتفقوا على الخروج من مكة ليلا حتى لا يراهم أحد مخافة الفتنة، فغادرت الدفعة الأولى و كان عددها ستة عشر شخصا و استطاعت الوصول إلى أرض الحبشة مرورا بساحل البحر الأحمر ، ثم أعقبها مجموعة ثانية تتألف من ثلاثة و ثمانين رجلا و تسع عشرة امرأة كلهم يأملون أن يستقبلهم الأحباش ملكا و شعبا استقبالا حسنا فكان ذلك أول هجرة في الأسلام.

و اشتد غيظ أهل قريش و جن جنونهم لما سمعوا أن هؤلاء المسلمين خرجوا من مكة سرا ، و ذلك لأن أولاد بعض الأسر القرشية النبيلة و بناتها كانوا معهم ، و زاد من غضبهم أن سمعوا أنهم استقبلوا في أرض الحبشة استقبالا حسنا ، و لاقوا معاملة طيبة من الأحباش.

و اتفق زعماء قريش على أن يبعثوا رجلين إلى ملك الحبشة لعلهما ينجحان في إقناعه على إرجاعهم إلى مكة ، فاختاروا رجلين معروفين بالذكاء الحاد و الخطابة البليغة ، و هما : عمرو بن العاص و عبد الله بن أبي ربيعة ، و قبل أن دخلا على النجاشي ملك الحبشة قدما لكل واحد من مستشاريه هدايا و قالا لهم: " إنه قد لجأ إلى بلدكم منا سفهاء و أووا إليكم ، و قد بعثنا إلى ملككم فيهم أشرافنا لنقنعه على ردهم إلينا ، فإذا كلمنا الملك فيهم

فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا." فوافقوا على طلبهما.

ثم إنهما لما دخلا على الملك قدما له هداياهما ، و كلماه فقالا له : " أيها الملك ،إنهم فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم."

فقال مشتشاروه حوله: " صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم و قومهم." فغضب الملك ثم قال: لا و الله ، لا أسلمهم إليهما ، و لا يكاد قوم جاوروني ، و نزلوا بلادي ، و اختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ، و رددتهم إلى قومهم ، و إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما."

أصاب عمرا الغم الشديد لأن آخر شيء تمناه هو أن يسمعهم الملك ، فدعاهم ، ولما دخلوا عليه لم يركعوا أمامه على عادة الأحباش.

فسألهم أحد المستشارين : " و لم لا تركعون أمام ملكنا؟ "

فقالوا " إنا لا نركع إلا أمام الله " فطلب منهم الملك أن يعطوه فكرة عن دينهم.

و تم اختيار جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه و سلم و شقيق علي كرم الله وجهه ليكلم الملك باسم المسلمين ، فقال له : " أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، أعرضنا نحن و أجدادنا عن دين إبراهيم الذي بنى الكعبة مع إسماعيل و أخلص العبادة لله وحده لا شريك له ، نعبد الأصنام ، و نأكل الميتة ، و نسيئ الجوار ، و يأكل القوي منا الضعيف ، و نأتي الفواحش ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه و صدقه ، و أمانته و عفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده و نعبده ، و نخلع ما كنا نعبد نحن و آباؤنا من دونه ، من الحجارة و الأوثان ، و أمرنا بصدق الحديث ، و أداء الأمانة ، و صلة الرحم ، و حسن الجوار ، و الكف عن المحارم و الدماء ،

و نهانا عن الفواحش ، و قول الزور ، و أكل مال اليتيم ، و قذف المحصنات ، و أمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، و أمرنا بالصلاة ، و الزكاة ، و الصيام ، فصدقناه و آمنا به ، اتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا و حالوا بيننا و بين ديننا ، فلما قهرونا و ضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك ، و رغبنا في جوارك ، و رجونا ألا نظلم عندك أيها الملك!"

فتأثر الملك الذي كان يدين المسيحية بهذه الكلمات المليئة بالعواطف الجياشة الصادقة ، وكان على عمرو أن يجد طريقا يضمن له الفوز في هذا النزاع ، فقال للملك في مكر و دهاء: " إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، ولا يؤمنون به إيمانكم ، و يزعمون أن عيسى بن مريم عبد! " فأراد الملك أن يسمع منهم ما يقولون في عيسى المسيح عليه السلام ، فسألهم : " ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ " فأجابه جعفر بتلاوة سورة في القرآن الكريم تتحدث عن عيسى المسيح و أمه مريم ، و إليكم بعض آياتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا

فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا

فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا

يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (سورة مريم الآيات من 16 إلى 33)

فلما سمع الملك تلك الآيات المباركات اعرورقت عيناه بالدموع ، ثم التفت إلى مستشاريه فقال لهم: " إن هذه الكلمات لآتية من الله ، و إنه لا فرق بين المسلمين و المسيحيين إلاالنذر اليسير ، و إن هذا و الذي جاء به عيسى نبي الله ليخرج من مشكاة واحدة."

و هكذا أذن الملك للمسلمين أن يعيشوا في بلاده في أمن و سلام و استقرار ، و رد هدايا عمرو إليه ، فعاد الرجلان القرشيان إلى بلادهما في خيبة أمل شديدة .

ظلم القرشيين

بدأ الخوف يزداد لدى زعماء قريش على أن يؤدي ما يعلّمه الرسول صلى الله عليه و سلم للناس إلى انقسام في صفوف أهل مكة ، لذا فقد قرر عمر بن الخطاب في آخر الأمر و هو أحد نبلاء قريش أن يقتل رسول الله صلى الله عليه و سلم كحل وحيد للتخلص منه ، فبادر إلى البحث عنه تنفيذا لقراره الذي صمم عليه.

و في الطريق لقيه رجل فهم ما ينوي فعله ، فقال له: " أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم قبل أن تتجه إلى قتل محمد؟ ألا تدري أن أختك قد أسلمت؟ "

صعق عمر بما سمع ، فلم يكن بمقدوره أن يصدق ذلك ، فهب إلى بيت أخته على الفور ، و لما صار قريبا من البيت سمع أخته و زوجها سعيدا يقرآن بصوت عال سورة طه إحدى سور القرآن الكريم ، فلما سمعت فاطمة صوت أخيها على الباب أخذت الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، فدخل عليهما عمر و هو يتقد غضبا فقال : " ما هذه الهينمة – أي صوت كلام لا يفهم –التي سمعتها ؟" فأنكرت فاطمة فقالت : " ما سمعت شيئا." فثارت ثورة عمر ، و صاح : " بلى و الله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا في دينه " ، فبطش بزوج فاطمة ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضربها أيضا.

فلما فعل ذلك عمر اعترفت فاطمة بالحقيقة و قالت: " نعم ، قد أسلمنا و آمنا بالله و رسوله ، فاصنع بنا ما بدا لك. "

و هنا أحس عمر بندم على ما فعل لما رأى ما بها من إيمان قوي و شجاعة ، فقال لها : " أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكما تقرآن آنفا ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. "

فأعطته فاطمة الصحيفة بعد أن وعدها بأنه سوف يغتسل و يتطهر قبل أن يمسها و أنه سوف يردها إليها.

بسم الله الرحمن الرحيم

طه

مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى

إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى (سورة طه الآيات من 1 إلى 8)

و بينما عمر يقرأ تلك الآيات أحس لحظتها بأنها أجمل كلام وقع سمعه حتى تلك اللحظة ، و أن هذا الدين هو الدين الحق.

فذهب على الفور و هو لا يزال متقلدا سيفه إلى بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم ضرب عليه الباب ضربة عنيفة ، فتطلع رجل من أصحابه الأقربين على الباب ليعرف من هو القادم ، فكانت المفاجأة أن رأى الرجل عمرَ المشهور بشجاعته و قوته واقفا عند الباب ، فأصابه فزع شديد لخوفه منه على حياة محمد صلى الله عليه و سلم ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم طلب منه أن يأذن لعمر بالدخول و أن يتركهما وحدهما في البيت.

ثم سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عمر عن سبب قدومه ، فقال عمر: " قدمت لأشهد أن لا إله إلا الله و أنك أنت محمدا رسول الله " فبينما تلك الكلمات تتناثر من فمه كانت يده لا تزال قابضة سيفه الذي نوى أن يقتل به محمدا صلى الله عليه و سلم ، و الذي كان مكتوبا عليه أن يستعمله في سبيل الدفاع عنه و عن الإسلام من الآن فصاعدا.

و في تلك الأيام كان المسلمون يطوفون حول الكعبة في سر و خوف ، و لكن عمر كان شجاعا ، فما أن أعلن إسلامه حتى توجه إلى الكعبة في وضح النهار ليطوف بالبيت العتيق علنا و أنظار القرشيين متوجهة صوبه في ذهول ، ولم يستطع أحد أن ينطق بكلمة ، و لكن زعماء قريش زادت رهبتهم و أصبحوا الآن يرون الإسلام يشكل خطرا على كل مناحي الحياة في مكة ، فصاروا كلما رأوا عدد المسلمين في ازدياد ازدادوا غلا و حقدا، فقرروا أخيرا أن يتخلصوا من رسول الله صلى الله عليه و سلم مثلما فعل عمر من قبل ، و لما سمع أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه و سلم بذلك أرسل إلى جميع أولاده يطالبهم بأن يتحركوا لحماية ابن أخيه قبل فوات الأوان ، فهبوا لتلبية دعوته ، ولما تأكد رجال قريش من أنهم لن يستطيعوا أن يخترقوا هذه الحماية لينالوا منه قرروا أن يبتعدوا عنه و عن أصحابه نهائيا ، لذا فقد علقت على الكعبة صحيفة نصت على أنه يجب على كل من في مكة أن يقاطع محمدا و أصحابه حتى في بيع الأطعمة و الأشربة لهم .

و في بادئ الأمر ساند بعض بني هاشم المسلمين لكون الرسول صلى الله عليه و سلم ينتسب إليهم ومع أن بعض هؤلاء لم يكونوا مسلمين إلا أنهم أخلصوا لأقاربهم و تحملوا معهم معاناتهم و بؤسهم ، إلا أن حالتهم المعيشية أخذت تتدهور و طعامهم ينفد ، و بلغ بغض سائر رجال قريش لرسول الله صلى الله عليه و سلم و أتباعه حدا جعل أبا لهب أحد ألد أعداء المسلمين يعرض على التجار عشرة أضعاف الأسعار حينما حاول الصحابة أن يشتروا لأنفسهم بعض المستلزمات الغذائية من قافلة مرت بجوار مكة ، و هو يقصد بذلك منعهم من أن يشتروا أشد ما يفتقرون إليه من الأغذية.

و في تلك السنوات المفجعة حدث شيء رائع : فقد قوي الإسلام بدل أن يضعف، و أنزل الله مزيدا من الوحي ، فكأن المسلمين بمعاناتهم زادوا من قواهم أكثر و تطهروا ، و ابتلوا في إيمانهم.

و كان الناس يفدون على مكة للحج من كل مكان و يشهدون ما يلقاه المسلمون من ظلم و أذى على أيدي القرشيين في تلك الأيام ، فيأسف بعضهم على حال الصحابة

مما دفع القرشيين إلى أن يشعروا بالخجل من معاملتهم القاسية لهم ، خصوصا أن أغلب هؤلاء المسلمين من أقاربهم و أبناء عمومتهم.

و في نهاية الأمر و بعد مضي ثلاث سنين رضي القرشيون أن يضعوا حدا لأذاهم و مقاطعتهم للمسلمين ، فاتفقوا على إبعاد الصحيفة التي علقوها في جوف الكعبة ، و كانت دهشتهم شديدة لما رأوا الصحيفة أكلتها الأرضة ، فلم يبق منها إلا الجزء الأعلى الذي كان مكتوبا عليه : " باسمك اللهم"

عام الحزن

عاد رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه إلى حياتهم الطبيعية ، و لكن الأعوام الصعبة كانت قد أثرت في صحة السيدة خديجة ، فأضعفتها مما أدى إلى إصابتها بمرض أودى بحياتها بعد قليل ، فبذلك فقد رسول الله صلى الله عليه و سلم زوجته الحبيبة و رفيقة دربه و أول من آمنت به و ناصرته ، و كانت له خير ملجأ يلجأ إليه ، و ينسى كل همومه و مخاوفه و هو معها ، كما كانت خير معين له بصفاء قلبها وقت الشدة ، و قد أحبها رسول الله صلى الله عليه و سلم كل الحب ، و ماتت خديجة عام 619 ميلاديا ، لذا فقد سمي هذا العام " عام الحزن".

و لم يمض من الوقت إلا القليل حتى مات عمه و حاميه أبو طالب ، و كان من خيرة أشراف مكة و شيوخها ، و على الرغم من أنه لم يعتنق الإسلام قط ، إلا أنه قام بحماية رسول الله صلى الله عليه و سلم ضد أعدائه خير قيام ، لذا فلم يكن أمر وفاته مجرد باعث للحزن في نفس رسول الله صلى الله عليه و سلم فقط ، و إنما كان خطرا عليه من جهة أخرى ، و ذلك لأن عادات العرب و تقاليدهم كانت تملي عليهم أن يكون الشخص المحمي في مأمن طالما أن حاميه على قيد الحياة ، أما الآن فقد أصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم بلا حام و لا ظهير له.

فابتهج أعداؤه حينما رأوه غارقا في حزن عميق و محروما من زوجة تسليه و تطمئنه و من عم يحميه من شر أعدائه ، فأخذوا يعاملونه أكثر قسوة ، حتى الأطفال الصغار بدأوا يستخفون به ، و في ذات المرة نثر شاب من سفهاء قريش الأقذار على رأس رسول الله صلى الله عليه و سلم و لكنه دخل بيته دون أن يرد عليه بشيء ، فقامت إحدى بناته تنظف عنه الأقذار و هي تبكي ، و رسول الله صلى الله عليه و سلم يسلّيها بقوله: " لا تبكي يا بنيَّةُ فإن الله حام أباك"

و كان أبو طالب آخر رابط يربط رسول الله صلى الله عليه و سلم بقريش ، و لما زال هذا الرابط أحس بأنه من الصعوبة بمكان أن تتسع دائرة الإسلام في مكة أكثر مما هو عليه الحال ، إذ القلوب مسدودة دونه هناك ، لذا قرر

أن يخرج إلى الطائف على أمل أن يجد النصرة المرجوة له فيه، فقطع الطريق كله المؤدي إلى الطائف ماشيا على قدميه و هو طريق يبلغ طوله ثمانين كيلو مترا ، و التمس هناك كل مجمع يجتمع فيه الناس ليقوم بنشر الدعوة بينهم ، و لكن لم يصغ إليه أحد ، و التقى رسول الله صلى الله عليه و سلم زعماء ثلاث قبائل ذات شأن غير أنهم لم يكتفوا بعدم الاكتراث به بل سخروا منه و أمروا عبيدهم أن يهينوه و يرشقوه بالحجارة .

فاضطر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الخروج من الطائف في حزن و وجد في طرف المدينة مكانا هادئا يصلح أن يجلس وحده تحت جدار فيه ، فدعا الله هناك حيث قال:

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، و قلة حيلتي ، و هواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، و أنت ربي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكتَه أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، و لكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، و صلح عليه أمر الدنيا و الآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، و لا حول و لا قوة إلا بك!"

و كان الجدار الذي جلس تحته رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديقة يملكها شقيقان ، و لما سمعا دعاءه أشفقا عليه و حزنا لحاله فأرسلا إليه طبقا مليئا بالعنب مع أحد غلمانهما ، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل البدء بالأكل : "باسم الله" ، فعجب الغلام المسمى عداسا من هذا الكلام الذي لم يسبق له أن سمعه من ذي قبل.

فقال: " و الله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد !"

فسأله رسول الله صلى الله عليه و سلم: " و من أي البلاد أنت يا عداس ، و ما دينك ؟"

قال : " نصراني ، و أنا رجل من أهل نينَوى ."

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرية الرجل الصالح يونس بن متى !" فقال له عداس : " و ما يدريك ما يونس بن متى؟ "

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " ذاك أخي ،كان نبيا ، و أنا نبي !"

لحظتها لم يتمالك عداس نفسه ، فأكب على رسول الله صلى الله عليه و سلم يقبل رأسه و يديه و قدميه ، لأنه كان قد تيقن أنه نبي بحق .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم انصرف من الطائف راجعا إلى مكة ماشيا على قدميه ، و الآن كان بمقدوره أن يواجه كل شيء بصبر و تؤدة ، لعلمه بأن الله عز و جل لن يتركه أبدا ، فلم يكن سفره إلى الطائف هباء فقد اعتنق عداس النصراني الإسلام و كان ذلك نذير تغيرات جذرية كبيرة سوف تقع لاحقا.

الإسراء و المعراج

و ذات ليلة بينما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم نائما في الموضع الذي كان ينام فيه عبد المطلب من قبل أيقظه الملك الموكل بالوحي جبريل عليه السلام.

و أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما بعد بما حدث في تلك الليلة حيث قال:

" ...فجلست ، فأخذ بعضدي ، فقمت معه ، فخرج بي إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض..."

ثم ذكر أنه كيف ركب الدابة و أسري بها و معه جبريل عليه السلام من مكة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف فوجد فيه إبراهيم و موسى و عيسى في نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فصلى بهم ،ثم أتي بإناءين في أحدهما خمر و في الآخر لبن ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم إناء اللبن فشرب منه و ترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : " هُدِيْتَ للفطرة و هديتْ أمتك يا محمد ، و حرِّمت عليكم الخمر."

ثم حكى رسول الله صلى الله عليه و سلم كيف أنهما مرا بأبواب الجنة و رأيا ملائكة كثيرة لا يعلم حصرها إلا الله و كان من بينها مالك خازن النار الذي لا يضحك أبدا و قد تقدمه ليسير من أمامه و أراه منظرا من النار و حال المعذبين المخيفة فيها.

ثم عرجت الملائكة بالنبي صلى الله عليه و سلم على السموات السبع الواحدة تلو الأخرى و في هذه الأثناء رأى في الطريق كلا من عيسى و موسى و إبراهيم عليهم السلام ثم قال: " لم أر رجلا أشبه بصاحبكم و لا صاحبكم أشبه به منه." كما رأى يحيى و يوسف و إدريس و هارون عليهم السلام.

و أخيرا بلغ سدرة المنتهى الشجرة التي لم يبلغ جنتها نبي قبله ، و التي تلقى منها رسول الله صلى الله عليه و سلم الوحي الذي يدينه المسلمون.

بسم الله الرحمن الرحيم

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (سورة البقرة الآية 285)

ثم راح يصعد حتى وقف عند نور الذات الإلهية ، فأوحى الله إليه و فرض على المسلمين خمسين ركعة في اليوم الواحد ، و لنستمع إلى باقي الحادثة على لسان رسول الله صلى الله عليه و سلم حيث يقول:

" فأقبلت راجعا ، فلما مررت بموسى بن عمران ، و نعم الصاحب كان لكم ، سألني : "كم فرض عليك من الصلاة ؟" فقلت : "خمسين صلاة كل يوم ." فقال : "إن الصلاة ثقيلة ، و إن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك و عن أمتك" ، فرجعت فسألت ربي أن يخفف عني و عن أمتي ، فوضع عني عشرا ، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت و سألت ربي فوضع عني عشرا ، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك ، كلما رجعت إليه قال : "فارجع فاسأل " حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عني إلا خمس صلوات في كل يوم و ليلة ، ثم رجعت إلى موسى ، فقال لي مثل ذلك ،

فقلت : "قد راجعت ربي و سألته ، حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل" ، فمن أداهن منكم إيمانا بهن و احتسابا لهن ، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة."

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى مكة صباح تلك الليلة التي وقعت فيها حادثة الإسراء و المعراج له ، فأخبر قومه بكل ما حدث ، فقال أكثرهم : " هذا والله الإمْر (الأمر العجيب المنكر) البين ، و الله إن العير لتطّرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة ، و شهرا مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة و يرجع إلى مكة!"

و عجب الناس حتى بعض المسلمين من هذا الأمر ، فطلبوا من الرسول صلى الله عليه و سلم تفسيرا لما حدث ، و هب بعضهم بالخبر إلى إبي بكر ، فقال لهم أبو بكر : " و الله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه يخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليلة أو نهار فأصدقه ! فهذا أبعد مما تعجبون منه؟ "

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم في المسجد فاستمع إليه و هو يحدث الناس بالقدس مفصلا ، فقال أبو بكر: "صدقت ، أشهد أنك رسول الله " ، فمنذ ذلك اليوم شرفه رسول الله صلى الله عليه و سلم بلقب " الصديق"

و لما عاد رسول الله صلى الله عليه و سلم يحدث الناس عن عيرين رآهما في طريقه إلى مكة ، و وصف لمن في قلبه ريب منهم الموضع الذي رآهما فيه و ما تحملانه من بضائع و حدد الوقت الذي يمكن أن تصلا فيه إلى مكة أخذوا يصدقون ما حدث له ، فلما وصلت العيران في الوقت المحدد بحمولتهما التي ذكرها لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم تحقق كل ما أخبرهم به على أرض الواقع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (سورة الإسراء الآية 1)

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى

عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (سورة النجم الآيات من 1 إلى 18)

بيعة العقبة

كانت قبيلتا الأوس و الخزرج الكبيرتان تقطنان يثرب إلى جوار اليهود و كان لهما نفوذهما و قوتهما فيها و تدينان بالوثنية ، و القتال مستمر بينهما ، و كان اليهود على عكس العرب يؤمنون بالإله الواحد و يعبدونه ، و قالوا للعرب أكثر من مرة إنه من المحتمل أن يبعث فيهم نبي وشيك.

حان موسم الحج و خرج من يثرب عدد كبير من الحجاج قاصدين زيارة الكعبة ، و كان فيهم ستة نفر من قبيلة الخزرج و حينما سمعوا دعوة النبي محمد صلى الله عليه و سلم قالوا : " إنه للنبي الذي يحدثنا عنه اليهود" ، فقرروا أن يذهبوا إليه ليكلموه أثناء تواجدهم في مكة.

و تم اللقاء بينهم و بين النبي صلى الله عليه و سلم في موضع بالقرب من مكة يسمى العقبة حيث دعاهم النبي صلى الله عليه و سلم إلى الجلوس معا ليشرح لهم ما يعنيه الإسلام من تعاليم و أصول ثم تلا عليهم آيا من الذكر الحكيم ، و حينما استمعوا إليها كان لها تأثيرها العميق في نفوسهم مما جعلهم يعلنون إسلامهم ، و عند مغادرتهم مكة وعدوه بالعودة إليه مرة أخرى العام القادم ، و لما بلغوا يثرب و نور العقيدة الإسلامية يضيء في قلوبهم نقلوا ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه و سلم إلى أقاربهم و أصدقائهم ، فأسلم الكثير من أهل يثرب على أيديهم.

و مرت سنة و حل موسم الحج من جديد ، و سافر إلى مكة الرعيل الأول المكون من اثني عشر رجلا من يثرب للقاء رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و بايعوه على أن يطيعوه و يخدموا الإسلام بإخلاص ، و مقابل ذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه و سلم معهم مصعب بن عمير أحد الصحابة ليقرئهم القرآن و يعلمهم الإسلام و يفقههم في الدين.

و مرت سنة أخرى و توافد المزيد من المسلمين من يثرب على مكة للحج و رتب رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه المرة اجتماعا سريا ليلا حضره ثلاثة و سبعون رجلا و امرأة من أهل يثرب ، و أما هو فقد حضر مقر الاجتماع مع عمه عباس رضي الله عنه ،

و خلال هذا الاجتماع عرض رجال يثرب على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكرة حمايتهم له و لأصحابه و الدفاع عنهم إن قدموا إلى يثرب للإقامة فيه ، و عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة منذ ذلك اليوم.

و كانت البيعة موفقة للغاية حيث أخذ الإسلام يحظى بقبول في يثرب باستمرار خلافا لمكة ، فالمسلمون لا يزالون يتألمون في مكة من معانات و يتعرضون للمضايقات ، لذا فقد أشار رسول الله صلى الله عليه و سلم على أصحابه و التابعين له بالهجرة إلى يثرب حيث المكان الآمن لهم ، فأخذ معظمهم برأيه هذا و هاجروا إليه.

و على الرغم من المعانات التي عاناها رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنه لم يؤذن له بقتال أعدائه ، ذلك أن الله أمره أن يتجاوز عن أولئك الذين آذوه أو الذين لم يقبلوا دعوته ، و لكن أهل مكة أعرضوا عن آيات الله إعراضا و صدوا أفئدتهم عنها صدا و قست قلوبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم و على أصحابه قسوة حتى أذن الله عز و جل بقتال من يحاول أن يصيبه و أصحابه بأذى.

بسم الله الرحمن الرحيم

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ

(سورة الحج الآيتان 39 -40)

و بدأ أهل مكة يخشون رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلمهم بأنه أصبح الآن يملك القوة الكافية لمحاربتهم و بأن الله أذن له بالجهاد و بأن أهل يثرب واقفون إلى جواره يناصرونه و يحمونه ، و حينما رأوا المسلمين يغادرون مكة تآمروا على قتله صلى الله عليه و سلم قبل أن يلحق بأصحابه في يثرب، آملين بذلك القضاء على الإسلام إلى الأبد.

الهجرة

و هي أن يقطع المرء كل صلة له تربطه بوطنه و لا يفعل ذلك إلا لله

و أقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة بعد خروج أصحابه منها مهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، و تخلف معه أبو بكر و علي و بعض من حبستهم قريش بها ، و كان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه و سلم في الهجرة فيقول له: " لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا. "

و اجتمع رجال قريش في دار جدهم قصي على عادتهم حينما يريدون أن يتخذوا قرارا مهما في شأن من شؤونهم ، فكان لا بد لهم هذه المرة أن يجدوا طريقا للتخلص من محمد صلى الله عليه و سلم قبل أن يلحق بأصحابه في يثرب.

و بينما هم غارقون في تشاورهم في أمر محمد صلى الله عليه و سلم اعترضهم الشيطان على الباب على هيئة شيخ جليل عليه بتٌّ (و هو كساء غليظ من صوف) ، فلما رأوه واقفا على الباب قالوا: "من الشيخ؟" قال : " شيخ من نجد سمع بالذي اتَّعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، و عسى ألا يعدمكم منه رأيا و نصحا ،" فاعتقدوا أنه شيخ عاقل ذو رأي و علم ، فأدخلوه في الدار.

ثم أدلى كل واحد منهم بدلوه في الأمر و لكنهم لم يستطيعوا التوصل إلى رأي يرضي الجميع إلى أن كشف أبو جهل عن خطته و قال : " أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه خارج داره فيضربوه بها عند خروجه من الدار ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو أسرته على حرب قومهم جميعا."

فقال الشيخ النجدي : " القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأي غيره! " فتفرق القوم على ذلك و هم مجمعون له.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (سورة الأنفال الآية 1)

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل أن تحل الليلة المقررة لقتله فقال : " لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه . " فَهَمَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم ما سوف يحدث ثم قال لعلي : " نم على فراشي ، و تسج ببردي هذا ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم . "

فلما كانت عتمة من الليل اجتمع فتيان قريش على بابه يرصدون خروجه ، و لما تأكد رسول الله صلى الله عليه و سلم من أن عليا في مأمن و لا خطر عليه خرج من البيت ، ففي تلك اللحظة أخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه و هو قد أخذ في يده حفنة من تراب و نثره على رؤوسهم و هو يتلو هذه الآيات :

بسم الله الرحمن الرحيم

يس

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ

(سورة يس الآيات من 1 إلى 9)

و انتظر الفتيان طوال الليل و لما انبلج الصبح و رأوا عليا مكان رسول الله صلى الله عليه و سلم الذي خرج من البيت و انطلق في سبيله جن جنونهم فعلموا أن خطتهم قد خيبتهم.

و في هذه الأثناء ذهب رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى دار أبي بكر رضي الله عنه و قال له : " إن الله قد أذن لي في الخروج و الهجرة ."

فقال أبو بكر : " الصحبة يا رسول الله ؟ "

قال : " الصحبة . "

فبكى أبو بكر من فرط الفرح لعلمه بأنه هو نفسه كان رفيق درب رسول الله صلى الله عليه و سلم الموعود ، ثم قال : " يا نبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، " و هكذا خرجا في طريقهما متجهين نحو غار بجبل الثور الواقع جنوبي مكة ليختبئا فيه .

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم و هما يغادران مكة و قد ألقى نظرة وداع على مكة خلفه: " و الله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، و إنك لأحب أرض الله إلي ، و لو لا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت."

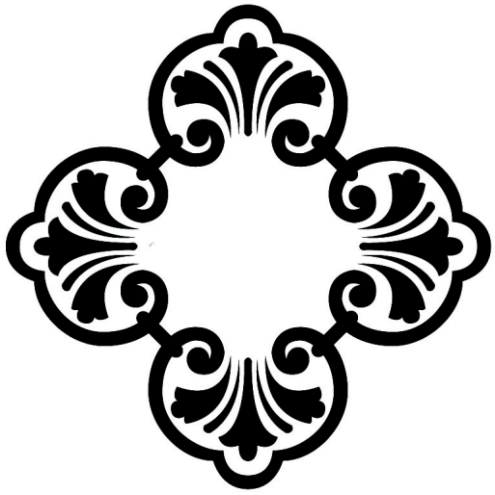
و لما علم رجال قريش بهجرة رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه من مكة خرجوا يتتبعون أثره في كل مكان ، و قعدوا له كل مرصد ، فلحقوه بعد ثلاثة أيام و هو في الغار مع أبي بكر رضي الله عنه ، و لكن حدث هناك شيء عجيب و رائع! إن عنكبوتا نسج خيوطه على فم الغار طولا و عرضا ، و إن حمامتين بنتا عشهما عليه ، فكانت تلك الخيوط هي التي تفصل بين رجال قريش و بين المهاجرين فقط عندما وقفوا على باب الغار ، فاستولى الخوف الشديد على أبي بكر على أمنهما ، فهمس في أذن رسول الله صلى الله عليه و سلم : " اقتربوا منا كثيرا يا رسول الله ! لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه رآنا."

و لكنه سرعان ما أحس بانشرح صدره حينما سمع رد رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يطمئنه : " يا أبا بكر ما ظنك في رجلين الله ثالثهما ،

لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا (سورة التوبة الآية 40)

و بعد دقائق اعتقد رجال قريش المتتبعون أثر رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه لا يمكن لأحد أن يكون قد دخل في الغار و إلا فلا يمكن لبيت العنكبوت أن يبقى متينا بهذا الشكل كما لا يمكن للحمامتين أن تبنيا عشهما هناك ، و هكذا انصرفوا من هناك دون أن يلقوا نظرة داخل الغار.

و بعد ثلاثة أيام خرجا من الغار لما تأكدا من زوال الخطر عليهما ، و كان عامر مولى أبي بكر قد دبر لهما ثلاث نوق و دليلا ليكملا مسيرهما إلى يثرب ، و كان عامر رديفا لسيده في هذا المسير.



و في هذه الأثناء عاد كبار قريش إلى مكة فجعلوا لمن يرد رسول الله صلى الله عليه و سلم عليهم مائة ناقة مكافأة ، و كان فيمن خرجوا للبحث عنه مقاتل معروف بشجاعته ، فلم يستطع أحد غيره من هؤلاء اللحاق برسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لكنه كلما دنا منه عثر فرسه فجأة فغاصت قوائمه في الرمال فلما تكرر منه ذلك عرف أن رسول الله صلى الله عليه و سلم تحميه قدرة أقوى من كل شيء يعرفه ، فعاد على أدراجه إلى مكة ، فلما وصل إليها قص على الناس ما حدث له و حذر الجميع من مغبة تتبع أثر رسول الله صلى الله عليه و سلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(سورة التوبة الآية 40)

وتطلق الهجرة اصطلاحا على انتقال الرسول صلى الله عليه و سلم من مكة إلى يثرب ، وكانت بحق الخطوة الأولى لانتشار الإسلام في كل أرجاء المعمورة ، لذا فقد اتخذها المسلمون بداية عامهم الهجري.

الوصول إلى يثرب

لما سمع أهل يثرب بخروج رسول الله صلى الله عليه و سلم من مكة و بأنه في طريقه إلى مدينتهم الآن أخذوا ينتظرون قدومه على أحر من جمر ، حيث صاروا يخرجون إلى ظاهر المدينة كل صباح ليترقبوه و يتأكدوا من وصوله ، و رآه أحدهم من على بعد أخيرا ، فهتف بأعلى صوته : " ها هو رسول الله قد جاء !" وهتف معه المسلمون: " الله أكبر ، الله أكبر ، جاء رسول الله !" و خرجوا جميعا لاستقباله ، و الأطفال و النساء ينشدون أجمل أناشيدهم رغبة إبدائهم فرحتهم و ابتهاجهم له ، و كان ذلك يوم الاثنين السابع و العشرين من شهر أيلول عام 622 ميلاديا (عام ستمائة و اثنين و عشرين ميلاديا)

دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة و معه أبو بكر رضي الله عنه ، و معظم الحشود الذين تجمعوا لاستقبالهما لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل ذلك ، لذا فلما تزاحم الناس عليهما ما عرفوه من أبي بكر حتى قام أبو بكر فأظله بردائه من حر الشمس الملتهبة ، و صار يثرب يدعى بالمدينة المنورة منذ ذلك الحين.

و أقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بقرية قباء الواقعة ظاهر المدينة المنورة ثلاثة أيام ، و لما أدركته الجمعة الأولى بعد قدومه إلى المدينة صلاها بالناس هناك، و أتاه أغنى رجال المدينة يدعونه أن يقيم عندهم و يشاركهم في العدد و العدة و المنعة و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم أبى هذه الدعوة و لم يقبل و أشار إلى ناقته المسماة بالقصواء و قال : " خلوا سبيلها " فكان يعلم أنها مأمورة و أنها سوف تأخذه إلى حيث ينبغي له أن يقيم ، فخلَّوا سبيلها فانطلقت حتى بركت على باب دار من بني النجار قبيلة أمه و هذه الدار كانت يومئذ تستعمل مربدا يجفف فيه التمر لغلامين يتيمين يدعى أحدهما سهلا و الآخر سهيلا ، و أرادوا أن يهبوا الدار لرسول الله صلى الله عليه و سلم و لكنه أصر أن يدفع ثمنها ، فقام كافل الغلامين أسعد بن سرارة بترتيب الإجراءات اللازمة لذلك.

و على هذا أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يبنى له مسجد و مسكن بالقرية على الفور ، فدأب المسلمون كلهم في عمل البناء حتى رسول الله صلى الله عليه و سلم عمل فيه ليكملوه في أقرب وقت ممكن حتى يتسنى لهم أداء الصلوات في المسجد و يجتمعوا فيه لاتخاذ القرارات المهمة و وضع الخطط ، و كان المبنى متواضعا للغاية و عاريا من الزخرفة و أرضه من التراب المضغوط و السعف فوق سطحه متشابك مع جذوع النخيل و الحجران موضوعان في موازاة القبلة، و كان المسلمون الأوائل يتوجهون في صلاتهم نحو القدس الشريف ، و لم يدم الأمر على ذلك طويلا بل تحولت القبلة بعد قليل إلى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة.

و لما تم بناء المسجد رغب رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يقوي أواصر العلاقات الأخوية بين المهاجرين و الأنصار ، فآخى بينهم حيث اتخذ كل أنصاري من المهاجرين أخا له يشاركه في كل ما يملكه و يعامله و كأنه واحد من أفراد أسرته فصار ذلك بداية الأخوة في الإسلام.

هذا ، و في أولى أيام الإسلام كان المسلمون يتجمعون في المسجد بغير دعوة فيتحينون الصلاة فيه حتى لا يفوتوها ، فاهتم النبي صلى الله عليه و سلم للصلاة كيف يجمع الناس لها ، و شاور أصحابه في ذلك فذكروا له مبدئيا رأيين ، أحدهما أن ينفخ في بوق كما يفعل اليهود ، والآخر أن يستعمل ناقوس من خشب مثل النصارى ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم رجل يدعى عبد الله بن زيد فقال: " طاف بي و أنا نائم رجل مغطى من رأسه إلى أخمص قدميه بالأخضر يحمل ناقوسا في يده فقلت له : " يا عبد الله ، أتبيعني الناقوس ندعو به إلى الصلاة ؟ " قال : " أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ " فقلت له : " بلى " فقال :

" الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله

حي على الصلاة ، حي على الصلاة

حي على الفلاح ، حي على الفلاح

الله أكبر ، الله أكبر

لا إله إلا الله "

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم بذلك قال : " إنها لرؤيا حق إن شاء الله" ثم أرسل إلى بلال صاحب الصوت الندي و القوي يأمره أن ينادي بهذه الكلمات للصلاة فصدح بلال بالأذان و سمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يقول : " و الذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى " ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " فلله الحمد ."

فها نحن اليوم نسمع في كل أرجاء المعمورة الأذان أو النداء للصلاة على المآذن يرتفع عاليا ، ذلك الذي سمّعه الله عبد الله بن زيد في منامه و الذي صدح به بلال بصوته الشجي بأمر من رسول الله صلى الله عليه و سلم.

غزوة بدر

لما هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة تركوا وراءهم كل ما يملكون من أموال الدنيا ، فنهبها أعداؤهم و استولوا عليها ، لذا عندما سمعوا بقدوم عير لقريش من الشام بقيادة أبي سفيان أحد زعمائها رأوا أنه قد آن الأوان ليستعيدوا ما يمكن استعادته من أيدي المشركين ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم بشن هجوم عليهم و ذلك بعد ما نزل الوحي عليه يأذن في قتال المشركين ، فأخذ الكل يتهيأ لذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

(سورة الحج الآيتان 39- 40)

وكما أن الوحي أخبر سلفا بأن أخطر شيء عند الله هو :

صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَ إِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ

(سورة البقرة الآية :217)

و الواقع أنه لم يكن الدافع الوحيد لفكرة شن هجوم على القافلة هو رغبة المسلمين في استرداد ما نهبه كفار قريش من أموالهم ، و إنما كانوا يطمعون في نشر رسالة الإسلام كذلك ، ولم يفكروا أبدا في أن يرضوا بالعيش الآمن الذي وفرته لهم المدينة المنورة ، لذا فقد رأوا أنه إذا كانت قريش تريد أن تتمتع بالحرية لمزاولة تجارتها آمنة بلا خوف فإنه من حق المسلمين كذلك أن يتمتعوا بحريتهم كاملة في أن يؤمنوا بالله عز و جل و يتبعوا رسوله صلى الله عليه و سلم و ينشروا آياته آمنين غير خائفين ،

فلذلك رأوا أن القيام بشن هجوم على ما هو أهم شيء في نظر قريش أي على عير لها هو الطريق الأوحد و الأنجع لإفهامها بهذا الواقع .

و في هذه الأثناء علم أبو سفيان بما يخططه المسلمون لشن هجوم على قافلته ، فبعث فورا رجلا إلى مكة يخبرهم بأن قافلته في خطر و أنه في حاجة إلى نجدتهم ، فتحرك القوم و أوعبوا كلهم تقريبا في الخروج بأسلحتهم و عتادهم لحماية العير و كان عددهم ألف مقاتل و معهم مئتا فرس بالإضافة إلى النساء اللاتي وقفن إلى جوارهم يستنهضنهم و يحرضن على القتال و ينشدن الأشعار .

و في هذا الوقت كان الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه قد خرجوا في طريقهم و هم لا يعلمون شيئا مما أقدم عليه أعداؤهم في مكة، و كان الوقت رمضان و الصحابة صيام ، و عددهم ثلاثمائة و خمسة رجال فقط ، و أغلب هؤلاء من الأنصار و معهم ثلاثة أفراس بالإضافة إلى سبعين بعيرا و كان رجلان أو ثلاثة منهم يعتقبون على بعير واحد .

وصل المسلمون إلى منطقة بدر الواقعة على مقربة من المدينة المنورة ، فأقاموا فيها يتصيدون أخبار القافلة ، و لأول مرة بلغ مسامعهم هناك أن رجال قريش خرجوا في جيش كبير لمواجهتهم ، فكان هذا التطور المفاجئ خطيرا للغاية ، إذ لم يعودوا يغيرون هذه المرة على قافلة بل ربما يحدو بهم الأمر إلى أن يواجهوا القرشيين بأسرهم.

فجمع رسول الله صلى الله عليه و سلم أصحابه و استشارهم في الأمر ، فتكلم أبو بكر ثم عمر باسم المهاجرين بما يؤيد رسول الله صلى الله عليه و سلم و يعضده ، و لكنه أراد أن يسمع من الأنصار كذلك ، فلم يرد أن يحمل القوم على أمر يكرهونه .

فقام سعد بن معاذ وهو من وجهاء الأنصار و قال: " لقد آمنا بك و صدقناك ، و شهدنا أن ما جئت به هو الحق ، و أعطيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا على السمع و الطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . "

سُرَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم بهذا القول و نشطه ذلك للقاء الكفار، فاستقر رأيه على مواجهتهم .

و عرف أبو سفيان معسكر المسلمين فغير طريق قافلته و ساقها إلى حيث يصعب عليهم الوصول إليه في مدة قصيرة ثم أرسل إلى قريش يخبرهم بأن قافلته في مأمن و يطلب إليهم العودة إلى مكة و لكن زعماء قريش كان عندهم من الخيلاء و الغطرسة و الفخر و العناد ما دفعهم إلى التصميم على القتال ، و على إبادة المسلمين حتى يعلم الكل كم أنهم أقوياء ، فرفضوا العودة إلى مكة.

و كان في بدر واد تتوافر فيه أقرب الآبار إلى المدينة المنورة فاتخذ المسلمون مواقعهم عندها بحيث جعلوا الآبار خلفهم و استقبلوا الوادي بينما استقر المشركون في الطرف الآخر له أي للوادي ، ثم حفر المسلمون حوضا ملؤوه بماء حملوه إليه من إحدى الآبار و حفروا حوله خندقا يحيط به ، ثم سدوا فوهات الآبار ليوفروا لأنفسهم ما يكفيهم من الماء و يمنعوا المشركين من الوصول إليه فكان على المشركين إن أرادوا الوصول إلى الماء أن يجتازوا الوادي و يواجهوا المسلمين.

و في ليلة ما قبل التقاء الجيشين هطل من السماء مطر غزير ساعد المسلمين على أن يناموا نوما هادئا .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (سورة الأنفال الآية 11)

و التقى الجيشان صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية (الموافق 17 مارس عام 623 م) و أخذ كل من الفريقين يزحف تجاه الآخر و كان المطر الغزير قد أوحل الأرض في جهة المشركين مما صعب عليهم التقدم إلى الأمام ، أما في جهة المسلمين فقد وطأ المطر الأرض و صلب الرمل و ثبت الأقدام ، و فضل رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يحارب مقاتلوه في صفوف و كان في يده قِدْح يعدل به القوم ، فرأى أحدهم متقدما من الصف فطعن في بطنه بالقِدْحِ و قال : " استو يا سواد! "

فقال الرجل و يدعى سوادا : " يا رسول الله أوجعتني و قد بعثك الله بالحق و العدل فأقدني."

فكشف رسول الله صلى الله عليه و سلم عن بطنه فقال : " استقد ! " فاعتنقه سواد فقبل بطنه ، فقال : " ما حملك على هذا يا سواد؟ " قال : " يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. " ثم ما لبث أن استشهد سواد في غمار هذه المعركة.

و بعدما عدّل رسول الله صلى الله عليه و سلم الصفوف رجع إلى عريش صنع له خصيصا من سعف النخيل ليشرف من خلاله على سير المعركة و يقود جيش المسلمين و معه أبو بكر رضي الله عنه ،

و كان سعد بن معاذ واقفا على باب العريش و معه رجال من الأنصار يحرسونه من أن يدهمه العدو من المشركين ، و لما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم جيش قريش الكبير ينحدر كالسيل العرم من أعلى التل إلى الوادي بعدده و عتاده و راياته و طبوله أخذ يكثر الابتهال و التضرع و الدعاء و يهتف بربه عز و جل و يقول : " اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها و فخرها تحادك و تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعدها في الأرض أبدا. "

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ

مَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَ لِتَطمَئِنَّ بِهِ قُلُوبِكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ

إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. (سورة الأنفال الآيتان 9-10)

و بدأ القتال بين الفريقين بالمبارزات الفردية أولا إذ جاء أحد المشركين يهجم على حوض المسلمين و قد أقسم أن يشرب منه أو يموت في سبيله فتصدى له حمزة عم النبي صلى الله عليه و سلم فقتله فتقدم ثلاثة من كبار المشركين يطلبون المبارزة ، فاختار رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا و حمزة و عبيدة بن الحارث لمبارزتهم فوثبوا على أعدائهم كالأسود و في لمح البصر قتل حمزة و علي خصميهما ، أما عبيدة فتبادل الضرب مع خصمه ، و جرح كل منهما الآخر ، فوثب حمزة و علي على خصم عبيدة فقتلاه و حملا صاحبهما إلى صفوف المسلمين.

ثم اشتدت نيران المعركة و تطايرت النبال في الجو و بذل الجانبان كل ما لديهما من قوة إلا أن المسلمين صمدوا في مواقعهم على الرغم من قلة عددهم و عتادهم أمام جيش قريش الكبير ، فلم تك إلا ساعة حتى انهزم المشركون و خر زعماؤهم في الميدان و كان من بين هؤلاء القتلى أبو جهل و أمية بن خلف و قد قتل هذا الأخير على يد عبده السابق بلال ، و انتهت المعركة بهزيمة نكراء للمشركين ، فولّى الناجون منهم مدبرين بعدما رأوا معظم قادتهم و زعمائهم لقوا حتفهم على ساحة المعركة.

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يبشر المسلمين فيها بنصر الله لهم و جمَع الغنائم في مكان و وزعها على المسلمين بالتساوي ، و أمر أن يعاملوا الأسرى الذين وقعوا في أيديهم بالحسنى إلى أن يحضر أقاربهم لاستلامهم منهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى

وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

(سورة الأنفال الآية 17)

أحد أو الهزيمة النكراء التي حلت بالمسلمين نتيجة مخالفتهم أمر الرسول صلى الله عليه و سلم

و بعد الهزيمة النكراء التي مني بها المشركون في معركة بدر عاد الناجون منهم إلى مكة و اجتمعوا إلى أبي سفيان و كان العير الذي جاء به أبو سفيان من الشام ، و الذي صار سببا في نشوب معركة بدر قد ربح ربحا طائلا فقالوا له : " إن محمدا قد قتل خيارنا ، فأعنا على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا" فرضي كل من كان له في هذا العير نصيب أن يترك ربح أمواله فيه استعدادا لتجهيز جيش جديد أكبر من الذي حارب في بدر .

و كان في الذين انضموا إلى الجيش الجديد عبد حبشي يدعى وحشيا اشتهر بدقة إصابته عند القذف بحربته ، و دعاه سيده جبير بن مطعم فقال : " اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق ." و سمعت هند زوجة أبي سفيان بذلك فتحمست لقتل حمزة لقتله أباها و أخاها ، فأرسلت إلى وحشي تعده بثياب من ذهب و فضة إن هو نفذ ما طلبه منه سيده.

و في هذه الأثناء كان العباس عم النبي صلى الله عليه و سلم لا يزال في مكة مع عدد قليل من المسلمين و كان واقفا على ما تخططه قريش لقتال المسلمين فأرسل إلى النبي صلى الله عليه و سلم كتابا تحذيريا يخبره بأن قريشا خرجت إليهم في جيش كبير و أنها على وشك الوصول إلى أحد عند مخرج المدينة المنورة ، فكان التوقيت لهذا التحذير موفقا ، فقد أتاح لرسول الله صلى الله عليه و سلم الفرصة لجمع أصحابه و استشارتهم لاتخاذ الموقف ، و كان يرى أنه من الخير لهم ألا يخرجوا من المدينة و أن يتحصنوا بها بدل أن يواجهوا العدو خارجها ، ذلك أن العدو إن دخل المدينة قاتله المسلمون على أفواه الأزقة و دافعوا عنها في يسر و سهولة ، و لكن الشباب من المسلمين تحمسوا للقاء العدو خارجها و قالوا : " يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا نجالدهم بسيوفنا حتى لا يروا أنا جبنّا عنهم و ضعفنا ."

و قال عبد الله بن أبي وهو أحد حكماء المدينة: " يا رسول الله ، أقم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، و لا دخل علينا إلا أصبنا منه ."

إلا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما رأى الأغلبية تصر على الخروج من المدينة المنورة و على مواجهة العدو خارجها اتخذ قراره مسايرة لها ، و لبس درعه بعد ما فرغ من صلاة الجمعة ، ثم عبأ المسلمون ألف رجل في اتجاه جبل أحد المشرف على المدينة المنورة، بينما عسكر العدو سفح الجبل يعيث في محاصيل المسلمين لا يبقي على شيء منها و لا يذر.

ثم إن عبد الله بن أبي غضب من رسول الله صلى الله عليه و سلم لأنه ترك رأيه و أطاع غيره ، فانسحب في منتصف الطريق بثلث العسكر إلى المدينة ، فبذلك بقي رسول الله صلى الله عليه و سلم مع سبعمائة رجل فقط أمام جيش قريش الضخم البالغ عدده ثلاثة آلاف رجل .

و بعد هذا التمرد و الانسحاب واصل من تبقى من المسلمين سيرهم حتى وصلوا إلى جبل أحد و هناك أمرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يصطفوا في صفوف مستقبلين الجبل ليحصنوا ظهورهم ثم اختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين قوامها خمسون مقاتلا و أمرهم بالتمركز على الجبل فقال: " انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبتوا مكانكم ، لا نؤتين من قبلكم ، فإن رأيتمونا نقتل و تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا . "

و لما أخذ المسلمون مواقعهم جرد رسول الله صلى الله عليه و سلم سيفه و نادى أصحابه : " من يأخذ هذا السيف بحقه؟ "، فتقدم كثير من أبطال المسلمين لأخذه لينالوا هذا الشرف الرفيع إلا أنه أعطاه لأبي دجانة ، ذلك المحارب الشجاع الذي لم يعرف الجبن طريقه إلى فؤاده أبدا، ومن ثم اندلعت نيران المعركة .

و على الرغم من أن جيش مكة فاق جيش الإسلام من حيث العدد بأربعة أضعاف إلا أن الثاني تفوق على الأول بفضل انتظامه تنظيما جيدا بالإضافة إلى أن القرشيين أنهكهم التعب في طريقهم الشاق و الطويل الذي قطعوه إلى أن وصلوا إلى أحد ، فلم يكونوا متهيئين للقتال بعد مما سهل على المسلمين أن يباغتوهم بشن هجوم ناجح غير متوقع عليهم بقيادة أبي دجانة الذي أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه و سلم و عصب رأسه بعصابته الحمراء .

و لما اشتد القتال و حمي الوطيس أخذت نسوة قريش بقيادة هند يتجولن في الصفوف ، و يضربن بالدفوف يستنهضن الرجال ، و يحرضن على القتال و ينشدن الأشعار و يحركن المشاعر :

" إن تُقْبلُوا نُعَانِق
ونَفْرِشُ النمـارق
أو تُدْبِرُوا نُفَـارِق
فـراق غير وَامِق "

قال أبو دجانة : " رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا ، فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه و سلم أن أضرب به امرأة ." فلم تكن تلك المرأة غير هند.

و كان حمزة عم النبي صلى الله عليه و سلم على عادته يقاتل في ميدان المعركة ببسالة منقطة النظير ، و في هذه الأثناء بينما هو يقود المسلمين في غمار حملة شرسة كادت أن تقضي على جيش العدو إذ بالعبد وحشي باغته بطريقة غير منصفة فأصابه إصابة بالغة ، و حكى وحشي ما حدث فيما بعد و قال : " كنت أتبصر حمزة يهد الناس بسيفه هدا... وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، فذهب لينوء نحوي فَغُلِبَ، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق ."

و هكذا دارت رحى الحرب ، و ظل الجيش الإسلامي مسيطرا على الموقف كله ، و في مدة قصيرة أخذت صفوف القرشيين تتبدد و انكسرت همتها فبدأت في الانسحاب و كأنها منيت بالهزيمة ، فلما رأى ذلك الأربعون من هؤلاء الرماة الخمسين الذين تم تنسيقهم فوق الجبل تناسوا أوامر رسول الله صلى الله عليه و سلم لهم و غادروا مواقعهم و أخذوا يلهثون من وراء الغنائم التي خلفها المشركون و هم هاربون ، عندها رآهم خالد ابن الوليد قائد فرسان المشركين فانتهز الفرصة و أمر رجاله بالعودة والانقضاض على المسلمين من خلفهم فقد فوجئ بهم المسلمون بكل ما تعني كلمة المفاجأة من معان ، فقد قام المشركون بالهجوم عليهم من جهتين في آن واحد فقتلوا عددا كبيرا منهم و هكذا بدأ المسلمون ينهزمون و يخسرون المعركة التي كانوا على وشك الانتصار فيها على أعدائهم.

و مما زاد من ارتباك المسلمين في ذلك الظرف الدقيق و الساعة الحرجة وسط هذه البلبلة أن شاع خبر مقتل الرسول صلى الله عليه و سلم ، فلم يدروا ماذا يفعلون ، و بينما هم على هذه الحال إذا بهم يسمعون رجلا يدعى أنسا ينادي فيهم: " إخوتي ، ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم " ، فتشجع المسلمون بكلام أنس هذا .

و في هذه الأثناء قامت مجموعة من فرسان المشركين بتركيز حملاتها على الموضع الذي فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه فأصابته في وجنته إصابة بالغة ، و صاح رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يهوي ثانية تحت وطأة هذه المجموعة و قد غشيته : " من يشتري لنا نفسه ؟ " فقام خمسة من الأنصار فقاتلوا دونه رجلا ثم رجلا حتى قتلوا جميعا ، فحل محلهم مجموعة أخرى من المسلمين ألحقت بالفرسان المشركين هزيمة نكراء ، و كان من بينها أبو دجانة ، و قد ظل يحمي الرسول صلى الله عليه و سلم و هو يحيط به بذراعيه مترسا عليه بنفسه إلى أن سقطت ذراعاه و فارق الحياة قبيل انتهاء المعركة إثر أصابته إصابات بالغة في ظهره بوابل من النبال صوب على الرسول صلى الله عليه و سلم.

و كان المشركون قد شفوا غيظهم و ثأروا بالمسلمين بالهزيمة التي ألحقوها بهم ، و صاح أبو سفيان في رجاله حين أراد الانصراف من ساحة المعركة بأعلى صوته: " أنعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، و إن الحرب سجال ."

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " قم يا عمر فأجبه فقل : " قتلانا في الجنة و قتلاكم في النار . " ثم خرج المسلمون في آثارهم يتعقبونهم إلى منتصف الطريق حتى يتأكدوا من أنهم لا ينوون الهجوم على المدينة المنورة .

و بعد منصرف العدو جال رسول الله صلى الله عليه و سلم في ساحة المعركة ليتفقد خسائر المسلمين ، و كان معظم أقوى المؤمنين قد قتلوا ، و وجد رسول الله صلى الله عليه و سلم من بين القتلى جثمان عمه و أقرب صديق عمره حمزة رضي الله عنه الذي قتله العبد وحشي ، فلما رأى منظره المروع قال : " لن أصاب بمثلك أبدا . " ثم جاءت صفية أخت حمزة ، فدعت لأخيها و صلت عليه و قالت : " إنا لله و إنا إليه راجعون . "

و وقف رسول الله صلى الله عليه و سلم على جثث قتلى المسلمين الكثار و دعا لهم ثم قال : " أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا و الله يبعثه يوم القيامة ، انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن ، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر." ثم دفنوهم في مضاجعهم حيث استشهدوا ، و قال الله عز و جل فيهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

(سورة آل عمران الآية : 169-170)

روي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا و إن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل . "

و كان المسلمون قد وعوا جيدا بأن خروجهم عن طاعة رسول الله صلى الله عليه و سلم هو الذي أوقع بهم الهزيمة ، و يخبرنا القرآن الكريم بأن الله تعالى ابتلى المسلمين و امتحنهم في أحد و أنهم أخفقوا في هذا الامتحان و لكن الله عفا عنهم بسبب ضعفهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

...مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(سورة آل عمران الآية 152)

فإذن لا بد أن يعتبر الناس اليوم من تلك الدروس التي تعلمها المسلمون الأوائل في أحد ، فقد أوقع بهم تلك الهزيمة النكراء عصيانهم و تكالبهم على حطام الدنيا ، و ليس ببعيد عنا أن تدور علينا الدوائر نفسها ، أو يمكننا أن ننال الشهادة في سبيل الله إذا نحن أعلنا الجهاد ضد الشر الذي بدواخلنا إن لم تكن أمامنا معركة مثل معركة أحد .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لأصحابه و هو يعود من إحدى الغزوات : " عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر "[1] قاصدا بذلك التأكيد على أن الكفاح الذي يخوضه كل إنسان في أعماقه من أجل أن يرتقي إلى الأحسن أصعب من الكفاح الذي يخوضه ضد العدو في ساحة القتال.

[1] يرى بعض أهل العلم أن جهاد النفس على الرغم من أنه جهاد عظيم إلا أن هذا الحديث لا يصح مرفوعا (مترجم)

غزوة الخندق

لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة المنورة أول مرة استقبله اليهود المقيمون فيها استقبالا حافلا ، مما شجعه على التفكير في إقامة علاقات ودية معهم فبدأ بالرد على تحياتهم أولا ، ثم أبرم معاهدة بينه و بينهم تنص على أن لليهود حقا في ممارسة واجباتهم الدينية بحرية ، و تحدد ما لهم من حقوق و ما عليهم من واجبات و من بينها أن عليهم أن يحاربوا إلى جانب المسملين في حالة نشوب حرب بينهم و بين القرشيين.

و على الرغم من أن هذه المعاهدة كانت لا تزال قائمة بينهم و سارية للمفعول إلا أن بعض القبائل اليهودية أخذت تبدي امتعاضها شيئا فشيئا من وجود رسول الله صلى الله عليه و سلم في المدينة المنورة ، ثم بدأت بإثارة مشكلات واهية و سعت إلى إيقاع الخلاف و الفوضى بين المهاجرين و الأنصار ، و مع أنه تم توجيه الإنذار غير مرة إلى هؤلاء المثيرين منهم للشغب و الفتنة إلا أنهم استمروا في أن يكونوا مصدر قلق و اضطراب ، فلم يبق أمام المسلمين من خيار غير طردهم من المدينة المنورة ، و مع ذلك لم يستتب الأمن و الاستقرار فيها و إن كان السملمون قد عرضوا على من تبقى من اليهود عقد معاهدة جديدة بينهم فقد تآمرت قبيلة بني النضير اليهودية على اغتيال رسول الله صلى الله عليه و سلم و لكن لما انكشفت مؤامرتها و باءت بالفشل تم طردها أيضا من المدينة.

هذا ، وقد قام بعض زعماء اليهود من الذين تم نفيهم من المدينة المنورة و الذين تيقنوا أنهم لن يستطيعوا الغلبة على المسلمين بالخروج سرا إلى مكة يطلبون دعم قريش ، و ابتكروا في ذلك طريقة ماكرة حيث تظاهروا بأنهم و القرشيين يعتنقون دينا واحدا لعلمهم بأن القرشيين سوف يعجبهم أن يسمعوا منهم هذا الكلام المحبب إلى نفوسهم و قالوا إنهم يرون أن تقاليد العرب القدامى الموروثة خير مما يعلّمه النبي محمد صلى الله عليه و سلم من تعاليم لأتباعه و أن دين قريش الوثني خير من دينه الداعي إلى عبادة الله الواحد ثم أضافوا بأن القبائل العربية إذا قامت بشن هجوم على المدينة فإن من تبقى من اليهود فيها سوف يقوم بمساعدتها على دحر محمد صلى الله عليه وسلم و طمس دينه من الوجود.

فقد سر أسياد قريش بما سمعوه من اليهود من هذا المدح لدينهم و قبلوا مخططهم الذي يتيح لهم فرصة ذهبية للقضاء على الإسلام ونبيه ، فشرعوا في تعبئة جيش كبير ، و اشتركت في هذه المؤامرة و الخيانة القبائل اليهودية كلها المقيمة في المدينة المنورة ماعدا قبيلة واحدة منها وهي قبيلة بني قريظة فقد رفضت هذه القبيلة اليهودية أن تطعن المسلمين في ظهورهم من الداخل.

و في نهاية الأمر اطلع المسلمون على ما يجري في مكة من استعداد للمشركين لقتال رسول الله صلى الله عليه و سلم و على ما يخططه اليهود من تآمر للقضاء عليه ، و لكنه لم يتفاجأ بسماع غدرهم و خيانتهم له و للمسلمين لأنه كان يقول دائما إن الله طبع على قلوب اليهود دون الحق ، و إنهم نسوا منذ زمن بعيد ما ذكروا به على لسان موسى من قبل.

بسم الله الرحمن الرحيم

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (سورة الجمعة الآية 5)

و كان المسلمون يتشاورون و يتساءلون فيما بينهم عن كيفية إيجاد طريقة يدافعون بها عن المدينة المنورة ، و سمعوا بأن أبا سفيان خرج في جيش كبير لمهاجمتهم و أن جيشه يضم إلى جوار القرشيين قبائل عربية كثيرة و أنهم في طريقهم الآن نحو المدينة المنورة ، فكان ذلك يعنى بالنسبة للمسلمين أنه عليهم أن يسرعوا في اتخاذ الإجراءات الضرورية خلال أسبوع واحد فقط ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة عدوهم و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه يعلمون جيدا أنه من المستحيل لهم أن ينتصروا على هذا العدد الهائل من القبائل المتحالفة مع قريش ضدهم فيتساءلون قائلين : فما العمل إذن ؟ فلا يجدون أمامهم حلا لتفادي هذه المصيبة الكبرى النازلة بهم غير التحصن داخل المدينة المنورة و الدفاع عنها من خلاله قدر الإمكان.

و في تلك الأيام كان هناك رجل يعيش في المدينة المنورة يدعى سلمان و هو من أصل فارسي و يدين بالمسيحية ، قدم إليها قبل هجرة الرسول صلى الله عليه و سلم لما سمع من أحبار النصارى بقرب زمان مبعث نبي يخرج بأرض العرب في الجزيرة العربية ، غير أن التجار الذين رافقهم في الطريق باعوه حال وصوله إلى المدينة و كأنه عبد مملوك ، ثم دخل سلمان في الإسلام فأعتقه سيده فصار واحدا من أفراد بيت النبوة.

و عندما اجتمع الناس في المدينة المنورة لبحث التدابير اللازمة لمواجهة العدو القادم كان سلمان حاضرا فيهم و هو الذي اقترح عليهم أن يحفروا خندقا حول المدينة فاستحسن النبي صلى الله عليه و سلم رأيه ، فباشر المسلمون العمل بهمة و عزيمة ، و عملوا ليل نهار ليكملوا عملية الحفر في أقرب وقت ممكن على الرغم من أن الوقت كان منتصف الشتاء ،

و كذلك كان الرسول صلى الله عليه و سلم يحمل معهم الحجارة و هو لابس بردته الحمراء على ظهره و قد علا الغبار شعره الطويل المتدلي على صدره و على كتفه ، يستحثهم و يقوي من عزمهم عندما ينهكهم و يهدهم التعب فكان ذاك المنظر البديع و هو على هيئته تلك جديرا بأن ينقش في الأذهان إلى الأبد .

و من جهة أخرى لم يتبق لديهم سوى القليل من الطعام فكانوا في غالب الأوقات يعملون و هم جياع و لكن حدث في إحدى المرات أن أعطت بنية صغيرة الرسول صلى الله عليه و سلمة حفنة من تمر أحضرتها إليه في خرقة قماش ، فأمر ببسط الخرقة و استدعى الناس لتناول التمر فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه حتى صدروا عنه و إن التمر ليتساقط من أطرافها .

و كذلك وقعت حادثة أخرى تشبه حادثة التمر و هي حادثة لحم عناق يرويها لنا أحدهم :

" إنا يوم الخندق كنا نحفر مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و كانت عندي عناق ضخمة نوعا ما ، و قلت في نفسي إن ذبحت العناق و طبخت من لحمها طعاما لرسول الله صلى الله عليه و سلم فذاك هو عين الخير ثم طلبت من امرأتي أن تطحن قدرا من الشعير و تخبز لنا منه خبزا ثم ذبحت العناق فطبخنا منها طعاما ، و لما حل الظلام و حان وقت انصراف النبي صلى الله عليه و سلم من الخندق دعوته إلى بيتنا و قلت له : " إننا طبخنا شيئا من الخبز و لحما ." و كنت أريده أن يحضر هو وحده دون غيره و لكنه عندما سمع ما قلته له أرسل أحدهم ليدعو الجميع إلى الطعام فلما حضروا قمنا بتقديم الطعام لهم ، ثم حمد الله على ذلك و دعاه باسمه تعالى ثم أكل و أكل معه الآخرون ، و كان إذا شبع منهم فريق حضر فريق آخر إلى أن شبع أهل الخندق كلهم ، و مع ذلك فقد بقيت بقية من الطعام."

و في اليوم الرابع و العشرين من شهر مارس في عام ستمائة و سبعة و عشرين ميلاديا قدم أبو سفيان في جيش كبير قوامه أكثر من ألف رجل ، بينما لا يزيد عدد المسلمين أمامهم عن ثلاثمائة رجل فقط ، فقام جيشه مع حلفائه بمحاصرة المدينة ، و لكنه وجد أمامه خندقا طويلا و عريضا يفصل بينه و بين المسلمين و يحول دون اقتحامه المدينة و ظل رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه يدافعون عنها شهرا كاملا متحصنين خلف الخندق ضده ، و خلال هذه المدة قام العدو بمحاولات عديدة لاجتياز الخندق و اقتحام المدينة إلا أن المسلمين قاوموه ببسالة و تمكنوا من دحره في كل مرة ، و مع ذلك كانت الخشية و القلق تساور المسلمين في معظم الأوقات من أن ينضم من تبقى من اليهود في المدينة إلى العدو في حال تمكنه من اجتياز الخندق و اقتحام المدينة فيكونون يدا واحدة تضرب المسلمين و تلحق بهم الهزيمة ، و بالفعل جرت بعض المحاولات لذلك ،

فقد تعرضت قبيلة بني قريظة اليهودية التي وقفت إلى جانب المسلمين بموجب المعاهدة القائمة بينها و بينهم إلى ضغوط شديدة من قبل مفوض يهودي سعى على إقناعها بفسخ المعاهدة ، و لما بلغ الرسول صلى الله عليه و سلم أن بني قريظة وافقت المفوض اليهودي على فسخها أصابه و أصحابه القلق الشديد ، فأرسل زعيم قبيلة أوس سعد بن معاذ و معه رجلان ليتأكدوا من صحة ما قيل ، و لما وصل سعد مع رفيقيه إلى الشطر الذي يسكنه اليهود من المدينة المنورة وجدوا الوضع أسوأ مما كانوا يتوقعون ، فعلى الرغم من أن سعدا حاول إقناع زعيم قبيلة بني قريظة التي كانت تربط بينها وبين قبيلته أوس روابط الصداقة بعدم فسخ المعاهدة القائمة بينها و بين المسلمين إلا أنه رفض ذلك رفضا باتا ولم يقبل ،

فكان ذلك يعني بالنسبة للمسلمين أن عليهم أن يكونوا يقظين في كل الأحوال فلا يهملوا جانب الحراسة لأنفسهم و لو لحظة ، لأنهم أصبحوا الآن مهددين بالخطر القادم ليس من العدو المتمركز خلف الخندق فقط و إنما من بني قريظة داخل أسوار المدينة كذلك.

هذا من جهة و من جهة أخرى كان البرد قارصا و طعامهم على وشك النفاد بالإضافة إلى أن بني قريظة أخذت تعمد إلى تضييق الخناق عليهم حتى تتحول حالهم إلى الأسوأ فكانت تقطع عليهم المعونات القادمة إليهم بما فيها طعامهم ، فهكذا أخذ وضع المسلمين في تدهور متواصل يوما بعد يوم ، مما أدى إلى تقوية العزم لدى العدو على الاستيلاء على المدينة و العمل على وضع خطط لتحقيق ذلك .

و كان الوضع يبدو ميؤوسا منه فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم ربه على أعدائه و أعداء المسلمين ، فسمع الله دعاء رسوله صلى الله عليه و سلم فأرسل في تلك الليلة عاصفة رملية عصفت بشدة فقوضت خيامهم و استمرت العاصفة ثلاثة أيام و لياليها فلم يتمكن الأعداء من خلالها من إشعال نيران لطبخ طعام لهم أو طلب دفء من البرد القارص.

و في إحدى تلك الليالي المظلمة كلف رسول الله صلى الله عليه و سلم أحد صحابته و هو حذيفة بن اليمان بمهمة خطيرة حيث طلب منه أن يذهب و يدخل في خيام القوم فينظر ماذا يصنعون .

عبر حذيفة الخندق في مشقة كبيرة ثم تسلل إلى حلقة المقاتلين القرشيين الذين كانوا يتكلمون فيما بينهم وهم جلوس فجلس بجوارهم دون أن يلحظ أحد بوجوده لعدم وجود نار مشتعلة بسبب هبوب العواصف القوية ثم سمع أبا سفيان و هو ينادي بالرحيل قائلا : " يا معشر قريش ...إنكم ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلكت الخيل و الإبل و لقينا من شدة الريح ما تطمئن لنا قدر و لا تقوم لنا نار و لا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ."

فلما سمع حذيفة بذلك من أبي سفيان نهض من مكانه بسرعة دون أن يحس به أحد و انتقل في صمت إلى الشطر الآخر للخندق و في اليوم التالي لما انبلج النهار سر المسلمون بما شاهدوه من صدق ما سمعوه من حذيفة البارحة ، فقد كان القرشيون و حلفاؤهم قد ارتحلوا فبذلك انتهت محاصرتهم المدينة المنورة بنصر مبين للإسلام .

و لكن لم يكن ذلك نهاية الصعوبات ، فقد أتاه جبريل و أخبره بأن الله يأمره أن يعاقب بني قريظة على خيانتها له و للمسلمين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم المسلمين بالمسير إلى بني قريظة المتحصنة في حصنها الحصين ، فحاصروها فيه خمسة عشر يوما ، فلما اشتد عليها الحصار و عظم البلاء رضيت بالاستسلام و طلبت من الرسول صلى الله عليه و سلم أن يأذن لرجل ترضاه بالنظر في قضيتها فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك و على اختيارها للرجل الذي سوف تنزل على حكمه في تقرير مصيرها

فوقع اختيار أهل بني قريظة على سعد بن معاذ الذي أصيب يوم الخندق بجروح خطيرة توقعا منهم أنه سوف يرأف بهم نظرا لأنه زعيم قبيلة أوس التي كانت تواليهم و ترعاهم في الجاهلية ، فقضى فيهم سعد بما تقتضيه قوانينهم المقدسة التي تقضي بالقتل على من ينقض عهدا ما بينه و بين غيره فحكم بموجبها على الرجال بالقتل و على النساء و الصغار بالسبي.

و لو قدر لليهود أن يحققوا ما أرادوه لقضي على الإسلام و طمست معالمه من الوجود إلى الأبد ، و لكن الله شاء في المقابل أن خلت المدينة المنورة للمسلمين بعد ذلك اليوم .

و لم يمض على عودة السلام إلى المدينة المنورة إلا القليل من الوقت حتى توفي سعد بن معاذ إثر تأثره بإصاباته الخطيرة ، و يحكى أن جبريل عليه السلام أتى الرسول صلى الله عليه و سلم بعد منتصف تلك الليلة التي قبضت فيها روح سعد الطاهرة و قال : " يا محمد من هذا المتوفى ؟ فقد اهتز العرش بقدومه و فتحت أبواب الجنة . " فما إن سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك

من جبريل عليه السلام حتى قام و أسرع إلى سعد إلا أنه وجده قد فارق الحياة ، وكان سعد رجلا بادنا و لما حمله الناس وجدوه أخف بكثير مما كان عليه ، و قيل لهم إن له حَمَلَةً غيرهم من الملائكة ساعدتهم في حمله و لما وضع جثمانه في قبره كبر رسول الله ثلاث مرات قائلا : " سبحان الله ، الله أكبر ." فلما سألوه عن سبب ذلك قال لهم : " تضايق القبر على صاحبكم ثم فرج الله عنه . " فكان ذلك مما وعد الله به الشهداء و الصالحين من نعيم .

صلح الحديبية

كان القرشيون قد أرادوا القضاء على الإسلام ولكن شاء الله أن يفشلوا في تحقيق ما عقدوا العزم عليه فلم ينجحوا في ذلك ، و في المقابل ازداد عدد المسلمين بشكل متواصل ، فبينما كانوا يوم بدر ثلاثمائة رجل في جيش الإسلام و في أحد سبعمائة أصبحوا في غزوة الخندق ثلاثة آلاف.

و في ذلك العام عقب انقضاء شهر الصوم رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم رؤيا في منامه تنبئ المسلمين بأن الوقت قد حان لخروجهم إلى مكة ، فاستعد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم لأداء الحج الأصغر المسمى العمرة ألف و أربعمائة مسلم ، و لبسوا ملابس الإحرام لا يحملون من آلات الحرب ليؤكدوا لقريش أنهم يريدون العمرة و لا يقصدون الحرب ، و لما علمت قريش بقدوم رسول الله صلى الله عليه و سلم مع المسلمين أرسلت جنودا بقيادة خالد بن الوليد لمنعهم من دخول مكة .

و لم يرد الرسول صلى الله عليه و سلم أن يتحرش بهذا الجيش الصغير فغير طريقه و سلك بصحابته طريقا وعرا بين شعاب ، فلما خرجوا منه و أفضوا إلى أرض سهلة قال لهم : " قولوا : نستغفر الله و نتوب إليه ." و لما وصلوا إلى الحديبية الواقعة في جنوبي مكة بركت ناقته و لم تنهض فقال الناس خلأت الناقة أو تعبت و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " ما خلأت و ما هو لها بخُلُق ، و لكن حبسها حابس الفيل عن مكة . " ثم أمرهم بالنزول في الحديبية ، فائتمروا بأمره وهم يحلمون المسير في اليوم التالي إلى مكة المكرمة.

و بعدما نصب المؤمنون خيامهم وجدوا الماء في الآبار على وشك النضوب فأصابهم اليأس ، و لما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلما ما هم عليه من اليأس أمر صحابيا يدعى ناجية أن يصب ماء من دلو توضأ فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم في ثقوب على جدران إحدى الآبار يقطر من خلالها ماء قليل و أن يغرزها بسهمه ففعل فجاشت بالرواء حتى وجد الصحابي ناجية صعوبة بالغة في الانحراف من أمام المياه العذبة المتدفقة .

و أرسل رسول الله صلى الله عليه و سلم وفودا لتفاوض قريشا و تؤكد لها أن المسلمين إنما خرجوا ليحجوا إلى الكعبة المشرفة و يعظموها و يعبدوا الله فيها و أنهم يريدون أن يدخلوا مكة مسالمين و لا يريدون القتال و لكن قريشا لم تعر أي اهتمام بما قالته الوفود الإسلامية ، فتقرر أن يبعث إلى مكة عثمان بن عفان صهر النبي صلى الله عليه و سلم ذلك الرجل العالم و العزيز على قريش ، و أخذ المسلمون ينتظرون الأخبار التي سوف يحملها إليهم عثمان بن عفان من مكة ، و لما طالت غيبته شعروا بقلق شديد عليه و قالوا إن عثمان بن عفان لا بد أن يكون قد قتل ، و في هذه الأثناء أصاب رسول الله صلى الله عليه و سلم حالة تشبه حالة نزول الوحي عليه فلما أفاق منها جمع الناس تحت شجرة من شجر الطلح و دعاهم إلى البيعة ، فبايعوه ، فسميت تلك البيعة ببعية الرضوان ، وهي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، و بعد مدة قصيرة عاد عثمان بن عفان من مكة سالما دون أن يصيبه أي مكروه ، فشعر المسلمون بارتياح كبير لعودته بسلام .

ثم قام ثلة من مقاتلي قريش بمحاولة شن هجوم على معسكر المسلمين إلا أنه تم القبض عليهم و اقتيادهم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما مثلوا بين يديه تعهدوا له بعدم تكرار ذلك منهم مرة أخرى فعفا عنهم ، و بعد وقت قصير أتت من قريش وفود رسمية تريد التفاوض مع المسلمين للتوصل إلى حل سلمي بينهم ، و لما بدأ الطرفان في النقاش دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم علي بن أبي طالب و طلب منه أن يكتب في أعلى الصفحة " بسم الله الرحمن الرحيم " فاعترض على ذلك رجل في وفود قريش يجيد التفاوض و يدعى سهيل بن عمرو قائلا : " لا أعرف هذا ، و لكن اكتب باسمك اللهم . " فوافق رسول الله صلى الله عليه و سلم عليه ثم قال : " اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . " فقاطعه سهيل قائلا : " توقف ، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ."

فوافق رسول الله صلى الله عليه و سلم مرة أخرى في هدوء أن يكتب اسمه و اسم أبيه على كتاب الصلح و لكن ذلك أثر في نفوس المسلمين و تملكهم الحزن الشديد ، فوثب عمر في غضب و هو يصيح : " يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ أولسنا بالمسلمين ؟ أولسنا على حق و هم على باطل ؟ فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ "

و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يعلم جيدا أن ذاك خير لهم ، فوقع على كتاب الصلح.

و بمقتضى هذه المعاهدة وافق كلا الطرفين على إعلان هدنة مدتها عشر سنوات و أن يعود المسلمون الآن إلى المدينة المنورة فورا على أن يدخلوا مكة معتمرين في العام القادم و يقيموا فيها مدة ثلاثة أيام ، هذا بالإضافة إلى أن من أراد من المسلمين أن يرتد عن الإسلام و يعود إلى مكة فله ما أراد ، و كذلك من أراد من قريش أن يدخل في الإسلام على أن يأذن له وليه بذلك فله ما أراد ، أما من أتى المسلمين بغير إذن وليه فيجب عليهم أن يردوه على قريش.

و حدث بُعَيْدَ فراغهم من إبرام العقد أن حضر ابن سهيل عندهم و هو عازم على أن يتبع رسول الله صلى الله عليه و سلم فجلس إلى جوار والده يريد الانضمام إلى المسلمين و لكن تم رده إلى مكة اضطراريا بموجب المعاهدة و من فرط الحزن كان يطلق صيحات تمزق القلوب ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يواسيه : "يا أبا جندل ، اصبر و احتسب فإن الله جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجا و مخرجا ."

و عندما سمع المسلمون بهذه الشروط صدم بها معظمهم صدمة عنيفة و شعروا بخيبة أمل كبيرة و رأوا أنه ما كان ينبغي لهم أن يوافقوا عليها ، و الحق أنهم لم يكونوا يدركون بعد أن هذه المعاهدة هي في الحقيقة نصر عظيم و مغنم كبير لرسول الله صلى الله عليه و سلم كما شهدت على ذلك آية نزلت فيما بعد بشأنها ، فقد أكدت هذه المعاهدة بوضوح على أن المسلمين سوف يدخلون مكة في العام القادم في سلام آمنين و أنهم بمرور الأيام سوف يزيدون قوة في الجزيرة العربية و ينالون المزيد من احترام القبائل العربية فيها ، فهم لم يكونوا يتوقعون وقت توقيع المعاهدة أن يفوق عدد الأشخاص الذين كانوا سيشدون الرحال نحو المدينة المنورة في العام القادم لإعلان إسلامهم عدد الذين سبقوهم إلى دين الله في أي عام مضى.

و قبيل الانصراف من الحديبية ذبح المسلمون هديهم و حلّقوا رؤوسهم اقتداء برسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقد تقبل الله عز و جل الذي اطلع على نواياهم حجهم و إن كانوا لم يوفّقوا في زيارة الكعبة المشرفة و الحج إليها في هذا العام.

و بعد عودتهم إلى المدينة المنورة أنزل الله على نبيه صلى الله عليه و سلم سورة الفتح التي تبتدئ بهذه الآي الحكيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (سورة الفح ، الآيات : من 1 إلى 3)

و في الحقيقة أن أغلب الذين غادروا مكة بغير إذن أوليائهم للحاق برسول الله صلى الله عليه و سلم و الذين تم ردهم إلى مكة بموجب معاهدة الحديبية لم يعودوا إليها و إنما هربوا إلى ساحل البحر و عاشوا فيه جماعات ، ثم انضم إليهم آخرون ممن غادروا مكة . ثم إن هذه الجماعات أصبحت تشكل خطرا على قوافل قريش التي كانت تمر من هناك حيث أخذت تتعرض لها و تقطع طريقها وتثير الرعب فيها ، فأرسلت قريش تخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بأنها لن تطالبه بإعادة هؤلاء المسلمين الجدد إليها إن كان يرغب في أخذهم إلى المدينة المنورة ، فأخذ هؤلاء الشبان يلحقون برسول الله صلى الله عليه و سلم ، و هكذا بدأ الناس في كل من مكة و المدينة يبطلون شرط المعاهدة و يتساهلون في التسامح و الاتصال بعضهم ببعض ، ثم تبع المسلمون الذين كانوا لا يزالون في الحبشة هؤلاء الشبان الذين قدموا من ساحل البحر و لحقوا برسول الله صلى الله عليه و سلم في المدينة المنورة ، فازداد عدد المسلمين فيها أضعافا مضاعفة.

و في هذه الأثناء خرج خالد بن الوليد ذلك المقاتل العظيم الذي هزم المسلمين في غزوة بدر في طريقه من مكة إلى المدينة المنورة و في منتصف الطريق التقى بالخطيب النابغ الشهير عمرو بن العاص الذي كان قد سار إلى أرض الحبشة لملاحقة المسلمين المهاجرين إليها و قد عاد منها حديثا على إثر دعوة النجاشي له إلى الإسلام ، فلما التقيا في الطريق سأل عمرو خالدا إلى أين هو ذاهب؟ فأجابه خالد قائلا : " و الله لقد استقام الميسم ، و إن الرجل لنبي ، أذهب والله فأسلم فحتى متى ؟ " فقال عمرو : " و الله ما جئتُ إلا لأسلم . " و هكذا سارا معا إلى المدينة المنورة ليتبعا رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و لكن الرجلين كانا يخافان لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونهما حاربا المسلمين في السابق لذا قال عمرو لما مثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يا رسول الله ، إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي و لا أذكر ما تأخر . "

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله ، و إن الهجرة تجب ما كان قبلها . "

و بعد مرور سنة كاملة على التوقيع على صلح الحديبية نجح رسول الله صلى الله عليه و سلم في أن يعتمر مع ألفي حاج برفقته ، و قد أخلى القرشيون مكة و انسحبوا فوق التلال المشرفة على المدينة و هم يتفرجون على المسلمين الذين يؤدون مناسكهم و يعبدون الله الواحد الأحد عند العكبة المشرفة ، و بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي سمح للمسلمين بأن يقيموها في مكة عملاً باتفاق الحديبية عاد المسلمون إلى المدينة المنورة سالمين و الله شاكرين.

الدعوة

إن الهدنة التي عقدت لمدة عشر سنوات ضمن صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه و سلم و بين قريش مكنت الناس من التنقل في حرية داخل الجزيرة العربية ، فاستغل هذه الفرصة من رغبوا في دخول الإسلام أو التعرف عليه ليتزاحموا على رسول الله صلى الله عليه و سلم في المدينة المنورة قادمين لزيارته من كل أرجاء الجزيرة ، ثم دخلوا في دين الله أفواجا ، و كذلك قرر رسول الله صلى الله عليه و سلم في هذه الأثناء أن يبلغ رسالته إلى بلاد أخرى خارج الجزيرة العربية ، فأرسل مع أصحابه الموثوق بهم

كتابات إلى ملوك أقوى الأمم وقتذاك يدعوهم بها إلى الإسلام ، و يروى أنه كان يقول لهم في كتاباته ما معناه : " إن الله بعثني رحمة للعالمين فإني رسول الله فأسلم تسلم."

و يروى أيضا أنه حدث قبل ذلك يوم الخندق أن برقت ثلاث برقات مضئية من صخرة كبيرة كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يحاول تحطيمها أثناء حفر الخندق حول المدينة المنورة مع المسلمين فكانت تلك البرقات الثلاث تضيء له الكون و تمكنه من أن يشاهد قلاعا للحضارات الثلاث التي كانت سوف تدين الإسلام في المستقبل القريب و نعني بها حضارة الجنوب و حضارة الشرق و حضارة الغرب.

و في الوقت الذي كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يبعث بكتاباته إلى الملوك و الزعماء كان أبو سفيان و غيره من القرشيين يتجرون في سوريا و سوريا وقتئذ كانت مستعمرة للإمبرطورية الرومانية (سميت فيما بعد بالإمبرطورية البيزانطية) و في تلك الأيام صادف أن رأى إمبرطور روما رؤيا في منامه و حكاها على من قدموا لزيارته في قصره في سوريا قائلا لهم و هو في هم شديد: " لقد رأيت في المنام أن إمبرطوريتنا قد انهارت و أن قوما لا يدينون ديننا انتصروا علينا و أن ملك الختان قد ظهر . " و نظرا لأن النصارى لا يختتنون ، فإن كلمة " قوم " الواردة في كلام الإمبرطور فُسِّرَتْ في بادئ الأمر باليهود ، و قد قيل له إنه لا يختتن إلا اليهود ففكر في لحظة من اللحظات في القضاء على كل من في أمبرطوريته منهم و لكنه تراجع عن هذه الفكرة بعد قليل لما دخل عليه رسول صاحب بصرى و قال : " أيها الإمبرطور العظيم ، يا صاحب الجلالة ، إنه يوجد في البلد بعض العرب الذين يتحدثون عن أمور عجيبة تحدث في بلادهم ." ثم أخبره بما سمع عن رسول الله صلى الله عليه و سلم .

فلما سمع منه هرقل ذلك ، أمر جنوده أن اذهبوا و ابحثوا عن أحد يستطيع أن يزودنا بمزيد من المعلومات عما يحدث هناك في الجزيرة .

و لكن الجنود لم يستطيعوا أن يجدوا أحدا يمكنه أن يزودهم بالمعلومات المطلوبة فاضطروا إلى إحضار أبي سفيان و معه قليل من رجاله إلى قصر الإمبرطور ، فلما مثلوا أمامه سألهم هرقل : " هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ "

أجاب أبو سفيان قائلا : " نعم ، أنا. "

التفت إليه الإمبرطور يستفسره عن شأن رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال : "كيف حسبه فيكم ؟"

أجاب أبو سفيان : " هو فينا ذو حسب . "

ثم سأله: " هل قال هذا القول أحد قبله؟ "

رد عليه أبو سفيان قائلا : " لا "

و هكذا استمر الحوار بينهما على شكل سؤال و جواب :

" هل كنتم تتهمونه بالكذب أو بالخديعة قبل أن يقول ما قال ؟ "

" كلا ، ما جربنا عليه كذبا قط "

" فماذا تقول عن أفكاره و نظراته و تبصره في الأمور ؟ "

" لم يشك فيه أحد ، و لم يقدح في بصيرته أحد "

" و من يتبعه ؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ "

" ضعفاؤهم "

" أيزيدون أم ينقصون ؟ "

" لا ، بل يزيدون ، و لا يرتد أحد عن دينه. "

ثم بدأ الإمبرطور بطرح أسئلة متنوعة فقال: "

" و هل يفي بالعهد إذا عقده ؟ "

" نعم "

" هل قاتلتموه ؟ "

" أجل ، تكون الحرب بيننا و بينه سجالا ، يصيب منا ، و نصيب منه ، و لكنه لم ينقض العهد أبدا."

" بم يأمر الناس ؟ "

" يأمر الناس أن يعبدوا الله وحده لا يشركوا به شيئا ، و ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم ، و يأمرهم بالصلاة و الزكاة و الصدق و العفاف و صلة الأرحام و بر الوالدين و أداء الحقوق و الواجبات ."

حقا إن أبا سفيان قد قال قولة حق أمام الإمبرطور هرقل و إنه لم يكذب عليه على الرغم من أنه كان العدو اللدود لرسول صلى الله عليه و سلم و أنه أبى أن يدخل الإسلام إلى آخر عمره ، فقد منعه الحياء من بطر الحق وهو مع رجاله الذين تم اقتيادهم معه إلى الإمبرطور ، ثم انتهى اللقاء بقول الإمبرطور لهم : " إذن هذا نبي ، و قلتم إنه لا يرتد أحد منهم عن دينه فهذا دليل على صدق إيمانهم و كذلك الإيمان يصدق إذا خالطت بشاشته القلوب ، و قد كنت أعلم أنه سيظهر ، و إن يكن ما تقول فيه حقا فليبلغن ملكه ما تحت قدمَيَّ هاتين ، و لو كنت عنده الآن لغسلت عن قدميه ، فالآن يمكنكم الانصراف . "

و بعد قليل و صل السفير دحية الكلبي و هو حامل رسالة رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى قصر هرقل بسوريا و قد ورد فيها :" أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (الرعية) "

تلقف هرقل الرسالة من دحية الكلبي بسرعة وقد بلغ به الحزن الشديد مبلغه فكان يجد صعوبة بالغة في أن يتمالك رباطة جأشه فقال لدحية : " و الله إني لأعلم أن صاحبكم نبي مرسل ، و أنه هو الذي كنا نجده في كتبنا ، و لكني أخاف الروم على نفسي

و لو لا ذلك لاتبعته ، فاذهبوا إلى ضغاطر الأسقف و اذكروا له أمر صاحبكم ، فهو و الله أعظم في الروم مني ، وأجوز قولا عندهم مني . "

فلما جاء دحية بالرسالة إلى الأسقف ، أخبره بما جاء به من رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى هرقل ، و بما يدعوه إليه ، فقال ضغاطر : " صاحبك و الله نبي مرسل ؛ نجده في كتبنا باسمه أحمد . " ثم ألقى جبته السوداء التي كانت عليه و لبس جبة أخرى بيضاء فخرج على الروم و هم في الكنيسة و قال لهم : " يا معشر الروم ، قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله ، و إني أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله . " (و أحمد هو واحد من أسماء رسول الله صلى الله عليه و سلم) فهب القوم عليه في غضب فقتلوه.

فخاف هرقل أن يكون مصيره مثل مصير ضغاطر ، ثم وقف على شرفة ليلقي كلمة على قواده فقال لهم في حذر شديد : " يا معشر الروم ، إنه قد أتاني كتاب من هذا الرجل يدعوني إلى دينه ، و إنه و الله للنبي الذي كنا ننتظره و نجده في كتبنا ؛ فهلموا فلنتبعه و نصدقه ، فتسلم لنا آخرتنا و ديننا. " فما كان منهم إلا أن تصايحوا في غضب و أخرجوا أصواتا سيئة دليلا على الاستهتار و الرفض ، فقال لهم هرقل : " يا معشر الروم ؛ إني قد قلت لكم المقالة التي قلت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي قد حدث ؛ و قد رأيت منكم الذي أُسَرُّ به . "

ثم عرض هرقل على الروم أن يدفعوا للمسلمين الجزية أو الأرض حتى يتم تحقيق الحفاظ على السلم بينهم و بين المسلمين ، فأبوا أن يعطوا خير بلاد الشام لهم أو يصالحوهم ، و كان هرقل يعلم جيدا أن الإسلام سوف يغزو سوريا عاجلا أم آجلا ، فلما تيقن من أنه لا يستطيع أن يعمل معهم أكثر مما عمل خرج من حاضرة سوريا متجها نحو القسطنطينية عاصمة الإمبرطورية الرومية الشرقية و وقف على تخوم بلاد الشام و هو يلقي نظرة وداع و قال : " وداعا يا سوريا وداعا لا لقاء بعد اليوم . "

و في هذه الأثناء كان قد وصل سفير آخر لرسول الله صلى الله عليه و سلم إلى قصر كسرى ملك الفرس ، و هناك قال له الحاجب : " لما تدخل على الملك عليك أن تلقي التحية عليه و أنت راكع و خاضع رأسك إجلالا له فلا ترفع رأسك حتى يكلمك . "

فقال سفير رسول الله صلى الله عليه و سلم رافضا الركوع أمام الملك : " كلا ، إنني لا أركع إلا لله ! " فقالوا له : " إذن فلا يقبل الملك رسالتك التي أتيت بها . "

و لما دخل السفير على الملك أخذه العجب الشديد من أمره فهو لم يركع أمامه على عادة الآخرين إجلالا و توقيرا له و لم يجلس على ركبتيه بل كان عالي الهامة و مشدود القامة تتأجج بين جوانحه عزة الإسلام و تتوقد في فؤاده كبرياء الإيمان ، و مع هذا فقد قرأ الملك الرسالة بصوت عال :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس

سلام على من اتبع الهدى و آمن بالله و رسوله و شهد أن لا إله إلا الله و حده لا شريك له و أن محمدا عبده و رسوله ، أدعوك بدعاية الله فإني رسول الله إلى الناس كافة لأدرك من كان حيا و يحق القول على الكافرين أسلم تسلم فإن أبيت ، فإنما عليك إثم المجوس .

فما إن انتهى كسرى من قراءة محتوى الرسالة حتى اشتعلت نار الغضب في صدره فجعل يمزقها تمزيقا .

و لما عاد السفير إلى المدينة المنورة أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بما كان من أمر كسرى و تمزيقه الكتاب فما زاد رسول الله صلى الله عليه و سلم على أن قال : " مزق الله ملكه " فاستجاب الله لدعاء نبيه صلى الله عليه و سلم حيث تمزق ملك فارس بعد سنوات .

و بالإضافة إلى سوريا و إيران بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم سفيره إلى النجاشي ملك الحبشة كذلك حيث ورد في رسالته ما يلي :

سلام عليك إني أحمد الله إليك ، الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن .

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

(سورة الحشر الآية 23)

و أشهد أن عيسى بن مريم روح الله و كلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت به ، فخلقه من روحه و نفخه كماخلق آدم بيده ، و إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له و الموالاة عن طاعته ، و أن تتبعني و تؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ، و السلام على من اتبع الهدى .

و كان النجاشي رجلا حصيفا و عالما ، و ذاع صيته في كل مكان بإخلاصه للمسيحية ، و كذلك كان طبيعيا أنه عرف من المسلمين الذين لجأوا إلى بلاده فيما مضى من الزمن عن نبي الإسلام و ما جاء به من هذا الدين الجديد ، فلذلك عندما قرأ رسالته أثرت فيه تأثيرا عميقا حتى نزل من عرشه إجلالا لشخص رسول الله صلى الله عليه و سلم في غيابه ، ولم يكن هذا التصرف منه دليلا على احترامه و تبجيله لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقط و إنما كان دليلا واضحا على إعلانه عن دخوله في الإسلام كذلك.

فكان رد النجاشي على رسالة رسول الله صلى الله عليه و سلم بالرسالة التالية:

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم

سلام عليك يا نبي الله و رحمة الله و بركاته من الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني إلى الإسلام .

أما بعد ؛ فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، و قد عرفنا ما بعثت به إلينا ، و قد قرينا (استضفنا) ابن عمِّك و أصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، و قد بايعتك و بايعت ابن عمك و أسلمت على يديه لله رب العالمين .

و في هذه الأثناء كان السفير الرابع لرسول الله صلى الله عليه و سلم على متن سفينة تبحر به نحو الإسكندرية ليقابل فيها المقوقس حاكم مصر و عظيم القبط و كان المقوقس يدين المسيحية ، و قد دعاه الرسول صلى الله عليه و سلم عبر رسالته التي حملها إليه سفيره إلى الإسلام لأنه رأى أن من آمن بتعاليم المسيحية التي أتى بها عيسى عليه السلام من عند الله كان لا بد أن يؤمن بما أتى به هو أيضا من عنده عز و جل ، و قد ورد في رسالته إلى المقوقس ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى و أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط.

فتلقى المقوقس الرسالة بقبول حسن و عظم محتواها ، و عامل سفير رسول الله صلى الله عليه و سلم بالحسنى ثم أرسل معه هدايا كثيرة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و مع ذلك لم يدخل المقوقس في الإسلام .

وَ بِمَا أَنَّ الْحَبَشَةَ هِيَ الَّتِي اسْتَجَابَتْ فَقَطْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِلَى الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَعْنِي خَسَارَةَ كُلِّ شَيْءٍ ، فما هي إلا سنوات قليلة حتى تَحَوَّلَتْ كُلٌّ مِنْ إِيرَانَ وَ سُورِيَا وَ مِصْرَ بِأَكْمَلِهَا إِلَى أَقْطَارٍ مُسْلِمَةٍ .

دخول مكة

و على الرغم من أن العلاقات بين مكة و المدينة عادت إلى طبيعتها بعد التوقيع على صلح الحديبية إلا أن الهدنة التي عقدت لمدة عشر سنوات ضمن هذا الصلح تم نقضها من قبل قريش و ذلك لما قامت حليفتها بنو بكر بالاعتداء على خذاعة المتحالفة مع المسلمين ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم بذلك ، أمر أصحابه بالتهيؤ للقتال ، و بعدما أكمل المسلمون عدتهم و عتادهم و استعدوا للخروج في مواجهة المشركين أخبرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن موعدهم مكة و بأن عليهم أن ينطلقوا إليها بأسرع ما يمكن حتى يفاجئوا المشركين في عقر دارهم وهم في غفلة ، فلا يتمكنوا من اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهتهم فيضطروا إلى الاستسلام تحت وطأة الحصار ، ذلك لأن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يكن يريد أن يقاتلهم داخل أسوار مكة ، و هكذا كان المسلمون سوف ينجحون بهذه الخطة في غزو مكة دون أن يتكبدوا أية خسائر في الأرواح أو إصابات بجروح .

و في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة خرج جيش المسلمين في عشرة آلاف مقاتل نحو مكة و كان معظمهم صائمين مع أن الصوم لم يكن واجبا عليهم لكونهم في سفر ، و بمجرد أن بدأوا زحفهم نحو مكة غمرتهم الفرحة الشديدة ، خصوصا أن بعضهم لم يكن ير داره و أهله منذ فترة طال أمدها أكثر من ثماني سنوات.

و في هذه الأثناء عقد عم الرسول صلى الله عليه و سلم العباس و زوجته العزم على مغادرة مكة و اللحاق برسول الله صلى الله عليه و سلم في المدينة المنورة ، و أخذا يخططان لتنفيذ ما أرادا ، فلما رأيا أنه قد آن الأوان المناسب ، خرجا من مكة و لكن حينما وصلا إلى حيث عسكر المسلمون لم يكن هناك حاجة إلى أن يقطعا من المسافات أكثر من خمسة و عشرين كيلو مترا ، ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما رآهما قال لعمه العباس رضي الله عنه : " هجرتك يا عم آخر هجرة كما أن نبوتي آخر نبوة . " فانضم العباس رضي الله عنه إلى جيش المسلمين في حين أن زوجته واصلت سيرها لتقر عينها بالعيش الآمن في المدينة المنورة في سلام.

و لما جن الليل أوقد المسلمون نيرانا يستضيؤون بها عند خيامهم ، بينما كان أهل مكة يحاولون أن يستطلعوا حقيقة ما يجري حول مدينتهم ، فلما رأوا كل تلك المشاعل الكثيرة أخذهم الخوف و القلق مما دفع أبا سفيان إلى الخروج إلى ضواحي مكة ليقوم بعملية استكشافية

عسى أن يعثر على شيء يطّلع من خلاله على هوية أصحاب تلك الخيام المنصوبة حول مكة ، فبينما هو على هذه الحال إذا به لمح العباس من بعيد يدنو منه من جهة النيران المشتعلة ثم تبين له بعد قليل أن العباس كان يتقدم نحوه سفيرا لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لأبي سفيان : " لقد وصل المسلمون في جيش كبير لا قِبَلَ لكم به و هم لا يريدون القتال و إنما يريدون دخول مكة فقط ، فيحسن بكم أن تستسلموا دون اللجوء إلى محاولة قتالهم حتى لا يحيقوا بكم ما تستحقونه من عقاب ، أما أنت فادخل في حمايتي حتى نذهب معا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم لتقابله فينظر في أمركم. "

وافق أبو سفيان على هذا العرض فأردفه العباس على بغلة النبي صلى الله عليه و سلم البيضاء التي كان قد أتى بها راكبا عليها عند قدومه هناك ، و لما دخلا معسكر المسلمين كان الوقت لا يزال ليلا ، فكانا كلما مرا بنار من نيران المسلمين قال أحدهم : " من هذا ؟ " فلم يكن أحد يتبين أن الغريب هو رئيس عدوهم و لمعرفتهم العباس كانوا يسمحون لهما بالعبور .

و عند مرورهما بنار عمر حدث ما لم يكن في الحسبان فقد عرفه عمر على الفور فقال : " أبو سفيان! عدو الله ! " فانطلق نحوهما يريد قتل عدوه إلا أن العباس تدارك خطورة الموقف فاستحث بغلته على الإسراع في سيرها ، فتمكنا من الوصول إلى خيمة الرسول صلى الله عليه و سلم في آخر لحظة قبيل لحاق عمر ، فاقتحم عمر وراءهما الخيمة و هو يلهث و يقول مترجيا لرسول الله صلى الله عليه و سلم : " يا رسول الله ، دعني أضرب عنق أبي سفيان ، عنق هذا العدو اللدود للإسلام الذي سلط علينا جيش قريش . "

فتدخل العباس قائلا : " يا رسول الله ، إني قد أجرته ما دام هو هنا . " فطلب رسول الله صلى الله عليه و سلم من عمه أن يذهب بأبي سفيان إلى خيمته ليبيت عنده تلك الليلة.

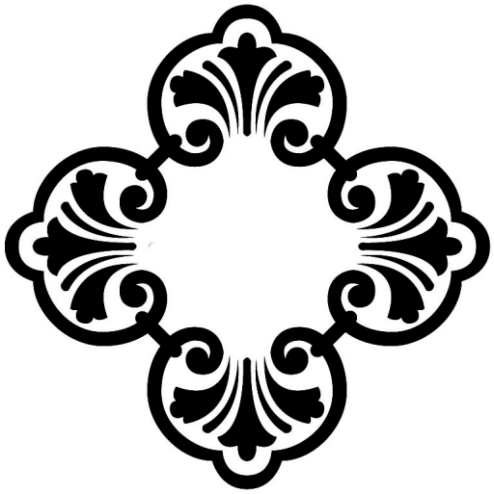
و لما أصبح الصبح أتي بأبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ "

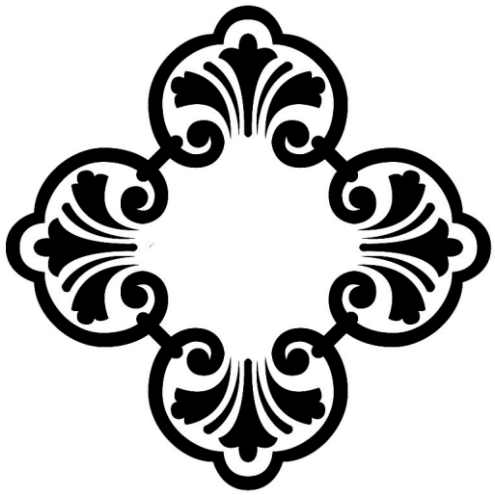
قال أبو سفيان : " لو كان مع الله إله لقد أغنى عني شيئا بعد . "

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " و يحك ، يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ "

لحظتها تذكر أبو سفيان أنه لم يُسْمَحْ لعمر بضرب عنقه فقال : " ما أحلمك ، و أكرمك ، و أعظم عفوك ، أما هذه فو الله إن في النفس منها لشيئا بعد . " و كان العباس واقفا بجوار أبي سفيان يسمع و يشاهد ما يجري بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم فالتفت إليه و قال : " آمن مثلما أنا أومن الآن . "

صمت أبو سفيان هنيهة ثم نطق بالشهادتين في هدوء و بصوت مسموع و نقي : " أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا عبده و رسوله ."





ثم طلب منه رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يعود إلى مكة ، و يخبر الناس هناك بأن المسلمين سوف يدخلونها صباح اليوم التالي ، و قبل أن يغادر أبو سفيان المكان عرض العباس على رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يجعل لأبي سفيان شئيا يفتخر به على قومه فهو رجل يحب الفخر فوافق رسول الله صلى الله عليه و سلم على ذلك وقال لأبي سفيان : " (قل للناس إنه) من دخل دارك فهو آمن . " فكان ذلك مدعاة لأن يتشرف و يفتخر به أبو سفيان أيما فخر ، ثم طلب منه رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يعطي الأمان لمن أغلق بابه و لمن دخل المسجد الحرام كذلك .

عاد أبو سفيان إلى مكة بسرعة ، ثم اتجه إلى التلة التي كانت هاجر قد صعدتها للبحث عن ماء ، و التي كان الرسول صلى الله عليه و سلم يخاطب في الناس عليها ، فنادى أبو سفيان في قومه ليجتمعوا حوله ثم قال لهم : " يا معشر قريش ، هذه المشاعل التي نشاهدها حولنا إنما هي لمعسكر محمد و رجاله فقد جاءكم بجيش قوي و ضخم لا قبل لكم به فليس لنا إلا الاستسلام ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، و من أغلق عليه بابه فهو آمن ، و من دخل المسجد فهو آمن . "

و في اليوم التالي دخل المسلمون مكة في وقت مبكر من كل الجهات ، و كانوا قد تلقوا أوامر بعدم إيذاء أحد طالما لا يقف أمامهم و لا يحاول منعهم من الدخول فيها ، و لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم نزل من راحلته فسجد لله تعالى على التراب سجدة شكر و حمد على هذا النصر العظيم ، فلما رآه المشركون علموا أنه إنما قدم للسلم فقط و ليس للحرب فأخذوا يخرجون من بيوتهم و يهرولون نحو الكعبة فلما وصلوا هناك وجدوا رسول الله صلى الله عليه و سلم يطوف حول الكعبة وهو على راحلته و المسلمون يحيطون به من كل صوب فلما فرغ من الطواف قال : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده و نصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية و تعظمها بالآباء ، الناس من آدم و آدم من تراب ." ثم تلا هذه الآية :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (سورة الحجرات – الآية 13)

ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ "

فكر الناس هنيهة قبل أن يجيبوه لأنهم كانوا يعلمون جيدا أنه ليس ببعيد أن يقعوا أسرى في أيدي المسلمين حسبما تمليه قوانين القتال في ذلك الوقت ، و لكنهم في الوقت نفسه كانوا يعلمون كذلك أن الرسول محمدا صلى الله و سلم سمح كريم ، فقالوا : " خيراً أخ كريم وابن أخ كريم " فقال صلى الله عليه و سلم : " فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته "لا تثريب عليكم اليوم" رحمكم الله و هو خير الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء . " ثم اتجه نحو الصفا و الناس يسيرون خلفه أفواجا و قد أمسك كل واحد بكفه المباركة ليشهر إسلامه بين يديه.

ثم عاد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الكعبة مرة أخرى و كان قد نُصِبَ حول الكعبة ثلاثمائة و ستون صنما فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام و هو يتلو الآية القرآنية التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

سورة الإسراء ، الآية 81

فأخذت الأصنام تتساقط على وجوهها ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم يطهر الكعبة مع أصحابه من بقايا الأصنام و أمر بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، فمنذ ذلك اليوم يسمع الأذان في مكة خمس مرات في اليوم ، و قد خدمت الكعبة أي بيت الله الغرض الذي بناها إبراهيم عليه السلام من أجله منذ آلاف السنين و هو أن تبقى الكعبة معبدا تخلص فيه العبادة للخالق وحده لا شريك له ، و سوف تبقى مكة مركزا روحيا للإسلام إلى الأبد إن شاء الله.

و خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم في الناس يوم الفتح فقال : " إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها شجرة ، لم تحلل لأحد كان قبلي ، و لا تحل لأحد يكون بعدي ، و إنما أذن لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس و ليبلغ الشاهد الغائب . "

الدرس العظيم في خطر الاغترار بالنفس بوادي حنين

لمع نور الإسلام بمكة المكرمة و ازداد المسلمون قوة كل يوم ، غير أنه كانت هناك قبيلة اشتهرت بين القبائل العربية الأخرى بأنها محاربة تدعى هوازن و تعيش جنوبي مكة و لم تدخل في الإسلام بعد ، و كانت قد تحالفت مع قبيلة أخرى من الطائف تدعى ثقيفا على محاربة المسلمين و القضاء عليهم ، و ذلك للحد من انتشار الدين الجديد في الجزيرة العربية .

و لم يمض إلا قليل من الوقت حتى استطاعت قبيلة ثقيف المعروفة بشجاعتها أن تنال دعم القبائل العربية الأخرى المستوطنة منطقة الطائف ، خصوصا أنها كانت تقول لهم : " انظروا ماذا حدث؟ فإذا كانت قريش و هي أقوى القبائل كلها قد انهزمت أمام محمد ، فليس ببعيد أن يكون مصيرنا مثل مصيرها في أية لحظة ، فإذن يتوجب علينا لتجنب هذه العاقبة المذرية أن نهب إلى كسر شوكة المسلمين و إلى ضربهم ضربة رجل واحد قبل أن يستقروا بمكة و ينالوا دعم قريش فتتوطد دعائم نصرهم فيستفحل أمرهم ."

و من ثم تم تسليم قياد القبائل كلها إلى رئيس قبيلة منها و هو مالك بن عوف ، و كان مالك رجلا محاربا و مقداما ، و قد أعد خطة للقضاء على الإسلام ، ثم عرضها على القبائل فقال: " عليكم أن تسوقوا معكم إلى القتال جميعا نساءكم و خيامكم و شياهكم و مواعزكم حتى تقاتلوا عن أهلكم و مالكم ، فلا يجرؤ أحد منكم على الفرار من المعركة في الوقت الذي يكون فيه كل ما يملكه في خطر . "

وافقه الكل على خطته هذه إلا شيخا هرما فَقَدَ بَصَرَهُ يدعى دريدا – و كان دريد في أيام شبابه مقاتلا عظيما ، و عندما تقدمت به السن لم يفقد من حيويته شيئا ، فكان لا يزال يشترك في الحروب لكونه فارساً مجرّباً و مُحَنَّكاً قد صقلته السنون و خبرته الأحداث ، فجعل كل ذلك منه رجلا حكيما يصدر نصائح قيمة يعتد بها وقت الحروب – وقد اعترض دريد على خطة مالك قائلا : " لم تعجبني هذه الخطة ، إنها ليست صائبة ، ذلك أنه إن كان الرجل جبانا بالقدر الذي يجعله لا يثبت في ميدان المعركة فيفر منه ، فإنه يهون عليه أن يترك أهله لأيدي الأعداء بكل سهولة بدل أن يدافع عنهم ، و أن النساء و الصغار قد يشكلون عائقا أمامنا فنتورط فيهم ، و أننا إن منينا بالهزيمة و وقعنا أسرى في أيدي المسلمين فإنهم سوف يستولون على كل ما نملكه من ثروات . " و مع ذلك لم يبال مالك بهذه النصيحة الصائبة بل أصر على المضي في تنفيذ خطته.

و في الوقت الذي علم فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم بخطة القبائل العربية لم يكن أمامه خيار غير قتالهم ، لذا أخرج جيشه المكون من أحد عشر ألف رجل نحو الطائف بينما كان جيش العدو يتكون من أربعة آلاف رجل فقط، و كان المسلمون كلما نظروا إلى كثرة عددهم و عتادهم افتخروا بقوتهم و قالوا فيما بينهم : " لن نُغْلَبَ من قلة أبدا. "

و لما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم تيقن أن النصر لن يكون من نصيب المسلمين ، لأنه قد أصابهم داء الغرور ، فقال لهم ما معناه : " لا تعتمدوا على قوتكم بل اعتمدوا على الله . "

و لما حان موعد المعركة كان جيش المسلمين يتقدم نحو وادٍ تمركزتْ فيه هوازنُ مع القبائل العربية الأخرى سالكا مسلك حنين المؤدي إلى طريق ضيق يمر بين الجبال الوعرة ، و في وقت السحر قبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم لم يكن المسلمون يدرون أن مقاتلي هوازن صعدوا الجبل تحت غطاء الظلام ليلا ، و أنهم يتربصون فرصة الإيقاع بهم الآن ، فما إن دخلوا في الطريق الضيق الذي يمر بين الجبال حتى أوقعتهم هوازن في كمين نصبته لهم منذ الليلة ، فبدؤوا يرشقونهم بالحجارة أولا ، ثم أمطروهم بالنبال من كل حدب و صوب و هاجموهم بالسيوف.

فتدارك المسلمون الموقف بسرعة و أخذوا يتراجعون في هلع و دهشة ، لا يلوي أحد على أحد ، و لما رآهم رسول الله صلى الله عليه و سلم يتراجعون في خوف ، أصابه الحزن الشديد جدا ، لكن عددا من الصحابة الكرام بما فيهم أبو بكر و علي و العباس ثبتوا أماكنهم ولم يتزحزحوا من حول رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم نادى العباس المسلمين يدعوهم إلى العودة و إلى عدم ترك رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فلما سمعوا العباس يناديهم شعروا بندم شديد و استحيوا على ما أقدموا عليه و رأوا رسول الله صلى الله عليه و سلم يكاد يواجه العدو وحده فهبوا إلى ساحة المعركة ، و هناك أرسل الله ملائكته –جنودا لم تروها– لنصرتهم فحمي الوطيس و اندفع المقاتلون المسلمون في غضب و هياج نحو الأمام حتى استطاعوا أن يرغموا هوازن على التراجع نحو المسلك المؤدي إلى الوادي حيث قامت هناك حرب شرسة استمرت حتى الغروب و انتهت بانتصار المسلمين على الأعداء ، و الجدير بالذكر أن المسلمين لم يظفروا بهذا النصر إلا بعد أن تلقنوا درسا قاسيا فيما جلبه عليهم الاغترار بالنفس من مخاطر.

و الحق أنه وقع بالفعل ما توقعه من قبل ذلك الرجل الهرم الخبير الذي يدعى دريدا ، فالأعداء لما ذاقوا مرارة الهزيمة على أيدي المسلمين ولّوا مدبرين تاركين وراءهم عوائلهم و أموالهم ، إلا أنه حدث بعد مدة أن عاد رؤساء القبائل كلها إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا رئيسا منهم يستسمحونه أن يعيد إليهم عوائلهم و يعلنوا أمامه إسلامهم ، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و أعادت عوائلهم إليهم و لكنه امتنع عن إعادة أموالهم.

و كان الذي تخلف عن الحضور عند رسول الله صلى الله عليه و سلم رئيس قبيلة هوازن ، فهو قد لاذ بالفرار إلى الطائف ليتحصن في حصنها الحصين و لكن المسلمين تعقبوا أثره و حاصروا الطائف مدة ثلاثة أسابيع حاولوا خلالها اقتحام الحصن و لكنهم فشلوا في ذلك و تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم بالتراجع ، و لكن ذلك لم يكن يعني نهاية كل شيء إذ لم يمض إلا قليل من الوقت حتى أقبل معظم هوازن و القبائل العربية الأخرى على مكة ليشهروا إسلامهم و كان فيهم مالك بن عوف الذي استحثهم على القتال ضد المسلمين و قد نصبه رسول الله صلى الله عليه و سلم رئيسا عليهم.

و بعد معركة حنين قام رسول الله صلى الله عليه و سلم بتقسيم الغنائم التي تم الاستيلاء عليها بين قريش و القبائل العربية الأخرى فلم يكن في الأنصار منها شيء مع أنهم هم الذين وقفوا معه سنوات طوال قبل فتح مكة يناصرونه و يدعمونه فأثار ذلك غضبهم فذهبوا إليه يشتكون ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يا معشر الأنصار ، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم ، و جِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلَّالا فهداكم الله؟ و عالةً فأغناكم الله ؟ و أعداء فألَّفَ اللهُ بين قلوبكم ؟ أ وجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم فِيَّ لَعَاعَة من الدنيا –يعني شيئا تافها– تألَّفْتُ بها قوما ليُسلموا ، و وَكَّلتُكم إلى إسلامكم؟ أما ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة و البعير ، و ترجعوا برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْبا ، و سلكت الأنصارُ شعبا لسلكتُ شِعبَ الأنصار . و إنكم ستلقون أثرة من بعدي ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ، اللهم ارحم الأنصار ، و أبناء الأنصار ، و أبناء أبناء الأنصار. "

شعر القوم بالندم و بكوا ثم قال الناطق باسمهم في تواضع كبير و وقار : " رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قَسْمًا وحظاً . "

و ها نحن كذلك باستطاعتنا أن نطرح هذا السؤال نفسه على أنفسنا ، أليس كذلك؟ فنقول : ألم يُبْعَثْ إلينا الرسول صلى الله عليه و سلم مرشدا يرشدنا إلى سواء السبيل ؟ ألم ينزل الكتاب هدى يهدينا إلى الحق و إلى السعادة في دار الخلد ؟ أليس ذلك أهم بكثير من الانشغال و التفكير في الملذات اليومية الفانية ؟

و بعد مدة قصيرة خرج الأنصار و معهم رسول الله صلى الله عليه و سلم في طريقهم نحو المدينة المنورة ، و الواقع أنه كان باستطاعته أن يختار قومه ليعيش بينهم إلى آخر عمره بمكة المكرمة و لكنه هاجر إلى المدينة المنورة ليقضي ما تبقى من عمره وسط الأنصار حتى يكون لهم مصدر سعادة كبيرة كما سبق أن وعدهم بذلك من قبل.

بسم الله الرحمن الرحيم

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ

ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (سورة التوبة الآيات من 25 إلى 27)

تبوك أو الاختبار الصعب في الإيمان

ذاعت الأخبار في كل مكان عن انتشار الإسلام بين معظم القبائل العربية حتى بلغت أخيرا مسمع الإمبراطور البيزنطي هرقل تفيد بأن قوة المسلمين في ازدياد مستمر في الجزيرة العربية ، فبدأ الشعور بالقلق يداهم الروم البيزنطيين و أخذوا يرون أن اتحاد العرب في الإسلام قد يشكل خطرا على أمن إمبراطوريتهم مما دفع مستشاري الإمبراطور و قواده إلى إجراء مشاورات بينهم في الأمر فاتحدت كلمتهم على العمل على القضاء على الإسلام بالكامل و رأوا أن أفضل شيء يمكن عمله من أجل تحقيق ذلك هو شن هجوم شامل على المسلمين شمالا و شرقا في آن واحد ، و كان وقتئذ قد مضى عامان على إبلاغ هرقل قومه برسالة النبي صلى الله عليه و سلم التي دعاهم فيها إلى الإسلام ، غير أنهم لم يكونوا يطيقون الإصغاء إلى مثل هذه الأفكار الوافدة عليهم كما كان شأنهم من قبل.

و لما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم بخطة الروم البيزنطيين ، رأى أنه من الأفضل أن يقابل الجيشَ البيزنطيَّ في تبوك الواقعة على طريق سوريا على بعد خمسمائة كيلو متر من المدينة المنورة بدل أن ينتظر هجومهم على المسلمين داخل المدينة.

و من الأسباب التي دفعت رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى اتخاذ هذا القرار شعوره بخطر داهم يتهدد المدينة المنورة بالسقوط في أيدي البيزنطيين ، كما يتهدد بوقوع المسلمين أسرى في أيديهم إذا منوا بالهزيمة داخلها ، إذ كان ذلك يعني – لا قدر الله – القضاء على الإسلام و طمس معالمه من الوجود إلى الأبد ، و كان من الصعب جدا اتخاذ هذا القرار ، ليس لبعد المسافة بين تبوك و المدينة المنورة فقط ، و إنما لأن موسم الحصاد كان قد حان و لأن الجو كان حارا جدا لدرجة أنه يكاد لا يطاق ، علاوة على ذلك كله فقد كان جيش العدو كبيرا جدا.

و في تلك الأيام كان هناك بعض الرجال ممن لم يكونوا مؤمنين بحق يعيشون بين ظهراني المسلمين في المدينة المنورة يطلق عليهم مصطلح " المنافقين" لأنهم يتظاهرون بالإيمان بينما يضمرون في قلوبهم خلاف ما يبدون ، و حينما استنفر رسول الله صلى الله عليه و سلم الجميع على قتال الروم حاول هؤلاء المنافقون أن يبثوا الرعب و الشك في قلوب المسلمين قائلين: "كيف بنا أن نتوخى الغلبة على الروم و هم الذين تسيطر أمبراطوريتهم العظمى على نطاق واسع من العالم ؟ ولو سلمنا فرضا بأننا قادرون على الانتصار عليهم ، فلا يمكن أن يتحقق لنا ذلك أبدا لأننا قبل أن نتمكن من اللقاء بهم و الانتصار عليهم سوف نكون قد انهزمنا أمام الحر الشديد و الطريق الشاق الطويل ، و لندع كل ذلك جانبا ، فكيف بنا أن نترك محاصيلنا هملا بلا حصاد و ثمارنا بلا جني ؟ فإن أهملناها هلكنا ."

إن كل ما قاله هؤلاء المنافقون لم يكن غير ابتلاء عظيم افتتن به المسلمون في دينهم و إيمانهم ، فمن ذا الذي كان سوف يواصل الجهاد في سبيل الله طارحا كل تلك العوائق أرض الحائط؟ و من ذا الذي كان سوف يجرؤ على إنفاق كل ما يملكه من مال الدنيا في تجهيز جيش المسلمين؟ حقا إنه كان ابتلاء عظيما ليميز الله به الصادقين من المنافقين ، فقد قال في حق هؤلاء الذين صدقوا في إيمانهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ

أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(سورة التوبة الآية – 38)

هذا ، و الرسول صلى الله عليه و سلم كان في حاجة ماسة إلى أموال طائلة يكوّن بها جيشا و يجهّزه ، و رغم كل ما قاله هؤلاء المنافقون فقد تسابق عدد كبير من المسلمين خصوصا المقربون منه صلى الله عليه و سلم إلى تقديم ما قدروا عليه من مساعدات و صدقات ، فعلى سبيل المثال تصدق عثمان بن عفان بسخاء منقطع النظير بما يكفي لتجهيز ألف جندي من خيول و أسلحة ، كما تصدق عمر بن الخطاب بمبالغ ضخمة من النقود ، و هكذا استطاع رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يجهز جيشا تألف من أربعين ألف جندي بفضل هؤلاء المؤمنين الصادقين الأوفياء.

و أخيرا صار كل شيء جاهزا ليبدأ الجيش الإسلامي زحفه ، و لكن في اللحظة الأخيرة أقدم سبعة أشخاص على رسول الله صلى الله عليه و سلم يستأذنونه أن يحملهم مع الجيش الإسلامي ، و للأسف اضطر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى رفض طلبهم نظرا لأنه لم يكن عنده ما يحملهم عليه من مطايا ، فأصابهم من الهم ما أصابهم و حزنوا على ذلك حزنا شديدا و بكوا على تخلفهم بكاء مرا ، فلم يكن من بد من أن يزحف الجيش دونهم ، و لكنهم ما لبثوا أن دبروا ما يحتاجونه من مطايا بإمكاناتهم الخاصة ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم أرسل إليهم من يبشرهم بأنه يمكنهم الآن أن يحاربوا في سبيل الله إلى جوار رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فانطلقوا مسرورين.

و في هذه الأثناء سمع الروم بخروج المسلمين لمواجهتهم ، فزاد ذلك من ثقتهم بأن النصر سوف يكون حليفهم ، لأنه يستحيل في نظرهم أن يقطع أي جيش تلك الصحراء القاحلة تحت شمس الصيف المحرقة ، و على فرض التسليم إن تمكن المسلمون بطريقة معجزوية أو أخرى من قطعها فإن الإرهاق سوف ينالهم و يهدهم هدا مما سوف يسهل إلحاقهم بالهزيمة .

حقا إن الحرارة كانت شديدة تشوي الوجوه و السفر شاقا إلى درجة أن بعض المسلمين عادوا إلى المدينة ، و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم و من تبقى معه من المسلمين

استمروا في سيرهم في الصحراء حتى نفد الماء و استبد بهم العطش إلى أن يئسوا من مواصلة السير، فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم ربه لينقذهم مما هم فيه فما إن فرغ من دعائه حتى بدأت أولى قطرات المطر تتقاطر شيئا فشيئا من السماء ، و استمر المطر إلى أن ارتوى المسلمون كلهم من الماء و لأول مرة غطوا في نوم عميق في تلك الليلة منذ عدة أيام ؛ لأنهم انتعشوا بالماء و كانوا على يقين بأن بلالا سوف يوقظهم لصلاة الفجر بصوته الشجي على عادته إلا أن النوم غلبه وكان غارقا فيه فلم يستطع أن يستيقظ ، ففاتت الصلاة المسلمين أول مرة و حزنوا على ذلك حزنا شديدا و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يغضب من بلال بل طلب منهم ألا يحزنوا لأنهم لم يتعمدوا أن تفوتهم الصلاة.

واصل رسول الله صلى الله عليه و سلم و جيشه المسير في الصحراء حتى وصلوا إلى بادية تبوك غير أنهم لم يجدوا أي أثر لجيش الروم فقد أفزعهم قطع المسلمين الصحراء بطريقة معجزوية فلاذوا بالفرار ، و بقي رسول الله صلى الله عليه و سلم في البادية مدة فلما تبين أن الروم لا يعتدون عليه أمر بالعودة إلى مكة و لم يرغب في مطاردتهم لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم ماكان يحارب إلا إذا اعتدي عليه.

و كان المسير الطويل إلى تبوك ابتلاء من نوع آخر افتتن به المسلمون في إيمانهم مرة أخرى ، فقد كان من بين هؤلاء الذين قاموا بإنجاز هذا المسير ببسالة منافقون تظاهروا بالإخلاص للإسلام و أضمروا في قلوبهم العداوة له في الواقع ، و لم يكن لأحد أن يتوقع احتمال وجود أحد يمكن أن يُكِنَّ لرسول الله صلى الله عليه و سلم العداوة و هو يتحمل هذا المسير الشاق معه ، فقد تنبه إلى ذلك بعض المنافقين و خططوا لاغتيال رسول الله صلى الله عليه و سلم عند مرورهم بمرتفعات العقبة بأن يدفعوا به من حافة ممر عال صخري إلى منحدر نحو الوادي.

إلا أن الله عز و جل أخبر رسوله بهذه الخطة الشيطانية قبل أن وصل الجيش إلى العقبة ، فأمر الجيشَ أن يسلك كل الجنود بطن الوادي بينما هو سلك حافة الممر مع اثنين من أصحابه يحرسانه و لما اقترب الرجال الذين اتفقوا على الغدر برسول الله صلى الله عليه و سلم صرخ بهم ليشعرهم بأنه على علم بخطتهم ، فهربوا بسرعة نحو الجيش و اختلطوا به ليختبئوا في الناس الذين كانوا يسيرون في الوادي.

ثم جمع رسول الله صلى الله عليه و سلم أصحابه حوله و أخبرهم بما حدث و كشف عن هوية كل واحد من هؤلاء الذين حاولوا اغتياله و أخبرهم بكل ما نطقوا به حرفيا فيما بينهم

و أشار عليه بعض أصحابه أن يقتلهم و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم عفا عنهم.

و بمجرد ما عاد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة المنورة ذهب إلى المسجد و صلى فيه ، و جاء إليه معظم الذين تخلفوا عن الخروج معه و المنافقين ليعتذروا إليه و يخبروه بالأسباب التي دفعتهم إلى هذا السلوك ، و بأمر من رسول الله صلى الله عليه و سلم انزوى ثلاثة من خيرة الصحابة من الذين تخلفوا في انتظار أن يعفو الله عنهم ، فلم يكلمهم أحد مدة خمسين يوما إلى أن أنزل الله على رسوله آية أخبره فيها بأنه عفا عنهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

سورة التوبة الآيات 117-118-119

حجة الوداع

والآن أصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم أقوى زعيم في كل أرجاء الجزيرة العربية ، و بعد أن تم تحطيم كل الأصنام في الكعبة و تطهيرها منها و دخلت قريش في دين الله أفواجا وفدت معظم القبائل العربية الأخرى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم معلنة إسلامها ، و قد عرف فيما بعد العام الذي وفدت فيه تلك القبائل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بعام الوفود ، و كان الرسول صلى الله عليه و سلم كلما دخلت قبيلة في دين الله يبعث إليهم من أصحابه من يعلّمهم دينهم الجديد.

و كذلك كان كثير من الناس يفدون بأنفسهم على رسول الله صلى الله عليه و سلم ليطرحوا عليه ما يشكل عليهم من مسائل ، و بعثت إحدى القبائل رجلا ضخما جلدا يسمى ضماما و عندما وصل ضمام إلى المدينة بادر بالذهاب إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو جالس في بعض أصحابه حتى و قف عليه فقال : " أيكم ابن عبد المطلب؟ " فأجابه رسول الله صلى الله عليه و سلم قائلا : " أنا ابن عبد المطلب. " قال ضمام : " إني سائلك و مغلظ عليك في المسألة فلا تجدنَّ في نفسك عليَّ ، أنشدك الله إلهك و إله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟"

قال صلى الله عليه و سلم : " اللهم نعم." قال ضمام: آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شئيا ، و أن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوا ت الخمس ؟ الزكاة و الصيام و الحج و شرائع الإسلام كلها ؟ " ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ أشهر هناك إسلامه قائلا : " فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن محمدا رسول الله . " ثم أضاف : " و سأؤدّي هذه الفرائض و أجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد و لا أنقص . " ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " إن صدق ذو العقيصتين (يقصد ضماما) دخل الجنة . " و لما قدم ضمام على قومه ظنوا كلهم أن الجنون أصابه ، و لكن ما أمسى من ذلك اليوم

في حاضره رجل و لا امرأة إلا مسلما.

و عند حلول موسم الحج من ذلك العام تم الإعلان عن رغبة رسول الله صلى الله عليه و سلم في الخروج إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فأقبلت الوفود الغفيرة على المدينة المنورة أفواجا أفواجا من كل نواحي الجزيرة العربية يريدون مرافقته في سفره ، فنزلوا بأطراف المدينة حتى تعدى عددهم ثلاثين ألفا ، و حضر رسول الله صلى الله عليه و سلم عندهم و معه عوائله و أصحابه ليقابلهم و يرأسهم في الحج ، و قبل الانطلاق للسفر أم رسول الله صلى الله عليه و سلم جميع المسلمين حيث صلّى الظهر بهم ، و بعد أن فرغ من الصلاة ركب ناقته متوجها نحو مكة ، و سار خلفه جموع الحجاج الذين عبدوا كلهم أول مرة الله الواحد الأحد لا شريك له منذ مائات الآلاف من السنين.

و تذكر المهاجرون يوم جاؤوا إلى المدينة هاربين من غضب القرشيين تاركين وراءهم مكة أول مرة ، يوم كانوا قلة يعدون بالأصابع مضطهدين ، و رأوا الجموع الهائلة تسير خلف الرسول صلى الله عليه و سلم و هي عازلة لا تحمل سلاحا و مع ذلك لا تخاف أحدا ، فامتلأت قلوبهم غبطة.

و طوال الطريق واظب الناس على رفع أصواتهم بدعاءٍ أمرهم الرسول صلى الله عليه و سلم بقراءته و هو دعاء التلبية الذي علمه إياه جبريل عليه السلام ، و قد صار جزءا من مشاعر الحج منذ ذلك الحين ، و كان تلبية للدعوة التي أُمِرَ بها إبراهيم عليه السلام حينما انتهى هو و ابنه إسماعيل عليهما السلام من بناء الكعبة.

"لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ،إنّ الحمد و النعمة لك و الملك ، لا شريك لك ."

و بعد مضي عشرة أيام مر الحجاج وقت الغروب بالممر الذي كانوا قد دخلوا فيه يوم فتح مكة ، و لما بلغوا الكعبة و قف رسول الله صلى الله عليه و سلم أمامها ليؤدّي الصلاة ، و بعدها طاف مع المسلمين حول الكعبة سبع مرات رافعين أصواتهم بالأدعية ، ثم ساروا نحو جبل عرفات كما كان إبراهيم عليه السلام يفعل منذ آلاف السنين ، أما الرسول صلى الله عليه و سلم فقد صعد هناك على ناقته.

و قام رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلى في جبل عرفات ، و اصطف الناس خلفه يصلون ، ثم خطب في الحشد الكبير المنتظر في السهل الواسع الممتد تحت الجبل ، و لأن هذه الخطبة هي آخر خطبة ألقاها رسول الله صلى الله قبل وفاته سميت " خطبة الوداع " قال فيها : " إنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم" و طلب من المسلمين أن يعتصموا بالقرآن الكريم و يقتدوا بهديه ، فإنهم إن تمسكوا بهما فلن يضلوا أبدا فإن خير الهدي هديه ، و أمرهم أن يقلعوا عن عادات الجاهلية السائدة قبل الإسلام ، فقد تم القضاء على عادة الثأر إلى الأبد و هي من أقدم العادات المتوارثة في الجزيرة ، كما تم تحريم الرشاوي ، و وجوب احترام الملكية ، و النهي في كل الأوقات عن ارتكاب كل شيء كان يتم الحذر منه خلال الأشهر الحرم الأربعة فقط ، ثم أردف قائلا: " تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، و أن المسلمين إخوة." فكان ذلك فكرة تستجد أول مرة على تلك القبائل التي كانت تتناحر بعضها مع بعض في أغلب الأحيان في الماضي ، ثم أضاف قائلا : إنّ الله أعطى كل ذي حق حقه. " و قد سألهم الرسول صلى الله عليه و سلم بعد كل مسألة ذكرها و وقف عليها : " ألا هل بلّغت؟ " فقالوا : " نعم" ؛ لأنهم كانوا الأشخاص الذين لا بد لهم أن يبلغوا رسالة النبي صلى الله عليه و سلم لمن لم يكن حاضرا هناك يومذاك و للأجيال القادمة بعدهم بأمانة.

ثم قال لهم الرسول صلى الله عليه و سلم : " فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت ، و قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به ، فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا : كتاب الله و سنة نبيه." ثم سألهم : " ألا هل بلغت؟ " فصاح الحشد قائلين: " اللهم قد بلغت." فأكمل رسول الله صلى الله عليه و سلم خطبته قائلا : " اللهم فاشهد. "

بسم الله الرحمن الرحيم

...الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا... سورة المائدة الآية 3

و بدأت الدموع تنهمر من عيون معظم المسلمين ؛ لأنهم أدركوا أنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أدّى الأمانة ، و بلّغ الرسالة فإن ذلك يعني أنّه قد قرب أجله و أنه سوف يفارقهم إلى جوار بارئه عز و جل.

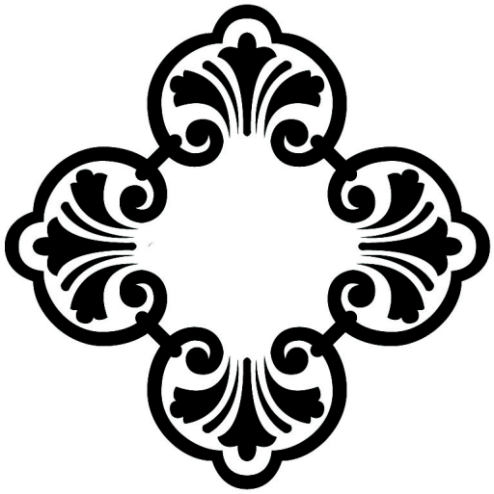
و بعد أن أمضى المسلمون ما بقي من يوم عرفة بالأدعية و التأمل في خشوع و تضرع و ابتهال أفاضوا إلى مكة و شفاههم لا تزال رطبة بدعاء التلبية يريدون إكمال فريضة الحج ؛ و في طريق العودة باتوا الليلة الأولى في مزدلفة ، و قد جمعوا هنا حصيا صغيرة ليأخذوها معهم في اليوم التالي إلى منى ، و لما وصلوا إلى منى وقفوا أمام صخرة كبيرة يرمونها بما جمعوه و أحضروه معهم من تلك الحصي من مزدلفة اقتداء و إحياء لسنة نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي عرض له في هذا الموقع إبليس عليه اللعنة ، فحاول إغراءه بأن يعصي الله عز وجل الذي أمره أن ينحر ابنه أسماعيل عليه السلام ابتلاء لإيمانه ، فبينما هو خارج لتنفيذ أمر ربه عرض له اللعين في منى و لكن إبراهم عليه السلام رشقه بحصي جمعها هناك ليبعده عن طريقه فمنذ أن قام رسول الله صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع برمي الجمرات في منى اقتداء بسنة نبي الله إبراهيم عليه السلام تحولت سنته هذه إلى عبادة يتعبد بها المسلمون كل عام في موسم الحج ، فهي تذكرهم بأنه يجب عليهم أن يستمروا هم كذلك في إبعاد الشيطان اللعين عن طريقهم طالما هو يسعى إلى إبعادهم عن طاعة الله عز و جل.

و بعد الانتهاء من رمي الجمرات قام الحجاج بذبح الأضاحي من البقر و الإبل و وزّعوا من لحومها على الفقراء ؛ ليتذكروا بذلك ما كان نبي الله إبراهيم عليه السلام يتمتع به من قوة إيمان ، ذلك الإيمان الذي قاده إلى تنفيذ أمر ربه بلا تردد ، ثم بعث الله عز و جل إليه بكبش ليكون فداء لإسماعيل عليه السلام في الوقت الذي كان يستعد لذبحه ، ثم أتم الحجاج مناسكهم بعد أن طافوا مرة أخرى حول الكعبة سبعة أشواط ثم قصّروا و حلّقوا رؤوسهم و قلّموا أظافرهم ليتحللوا من ثياب الإحرام البيضاء و يعودوا إلى حياتهم اليومية ، و قبل العودة إلى المدينة المنورة باتوا في وادي منى ثلاث ليال عملوا خلالها استعداداتهم الأخيرة للعودة .

و كذلك قام رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل مغادرته مكة بزيارة أخيرة لقبر زوجه خديجة ، تلك الزوج الصادقة التي هي أول من صدقته لما أنزل الله عز و جل عليه الوحي أول مرة ؛ و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعلم الآن أن هذه آخر مرة يرى فيها مكة أو قبر زوجه خديجة رضي الله عنها ؛ و ذلك لأن سورة النصر أنزلت عليه في حجة الوداع مما جعله يشعر بدنو أجله .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. سورة النصر الآيات 1-3



وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم

عاد الرسول صلى الله عليه و سلم إلى المدينة المنورة ، و لم يمض طويل وقت فيها إلا وقد قام رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات ليلة في جوف الليل و نادى خادمه عبد الله (أبا مويهبة) يطلب منه أن يسرج له بغلته ، ثم خرجا معا من داره متوجهين نحو بقيع الغرقد و هو مكان مقابر المسلمين ، فوقف أمام المقابر و كأنه يشاهد المسلمين الراقدين فيها و كلّمهم و دعا لهم ، و حكى عبد الله (أبو مويهبة) فيما بعد أنّ رسول الله صلى الله عليه و سلم قال له وقتذاك:" يا أبا مويهبة ، إني قد أُمِرْتُ أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معي. "

و لما تفرغ من الدعاء و الاستغفار لأهل البقيع التفت رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى مولاه و قال: "يا أبا مويهبة، إني قد أُوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيِّرْتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة." فما كاد ينتهي من قوله حتى بادره أبو مويهبة محرضاً له على الدنيا و مترجيا أن يختارها قائلاً :" بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة." ولكن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان قد وقع اختياره مسبقا على لقاء ربه و الجنة دون الخلد في هذه الدنيا فقال : " لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة."

و في صباح اليوم التالي استيقظ رسول الله صلى الله عليه و سلم على صداع شديد في رأسه و مع ذلك صلى بالناس في المسجد ، و هناك ألقى آخر خطبة له فيهم و فهم المجتمعون مما قاله رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قد اقترب أجله ، فأخذ أبو بكر الصديق يبكي من الحزن على فراقه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم أعز صديق له على تلك الحال أثنى عليه قائلا: " إنّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته و مالِه أبو بكر ، و لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا. " ثم توجه إلى الناس و قال لهم:" أيها الناس ، موعدي معكم ليس الدنيا ، موعدي معكم عند الحوض ، أيها الناس ، والله ما الفقر أخشى عليكم و لكن أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوها كما تنافسها الذين من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم ."

و بعدها طلب رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يحملوه إلى دار زوجه عائشة رضي الله عنها ، و كان المرض يشتد عليه يوما بعد يوم ، حتى أقعده أخيرا عن الخروج إلى المسجد الملتصق بدار عائشة رضي الله عنها ، فطلب منها أن تذهب إلى والدها أبي بكر تخبره بأن رسول الله صلى الله عليه و سلم يريد منه أن يصلي بالناس ،

فلما سمع المسلمون بهذا الخبر غشيهم ما غشيهم من حزن عميق ؛ إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يحل فيها أحد محل رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (632 الميلادية) سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم أصوات المصلين في المسجد ، فوقف بعد عناء شديد على رجليه يشاهدهم من خلال بابه و هم صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين ، فابتسم ابتسامة كلها ملء رضا ، فلما رآه أبو بكر تأخر ليترك له مكان الإمامة ، ففرح الناس و أفسحوا له ؛ حسبوا أنه خارج ليصلّي بهم ، و لكن الرسول صلى الله عليه و سلم الذي كان يشع من جماله نور في ذلك اليوم أشار لهم أن استمروا في صلاتكم ثم جلس يمين أبي بكر فصلى بجواره ، ثم عاد إلى حجرته و وضع رأسه في حِجْرِ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، و قد بلغ الوجع فيه مبلغه إلى درجة أن ابنتها فاطمة عندما دخلت عليه غرقت في البكاء من شدة الحزن و الشفقة عليه ، فقال لها : " ليس على أبيك كرب بعد اليوم ." و كأنه يخبرها بذلك أنه قد بان له أجله و أن كل نفس منا ذائقة الموت إلى قيام الساعة ، و بينما النبي صلى الله عليه و سلم راقد في حِجر السيدة عائشة رضي الله عنها تذكرت ما قاله في إحدى المرات :" إن الله لم يقبض نبيا حتى يخيره ." فلما حضره صلى الله عليه و سلم كان آخر كلمة سمعتها و هو يقول : " بل الرفيق الأعلى من الجنة. "

فقالت عائشة : " إذن والله لا يختارنا ."

و لما سمع الصحابة المتواجدون في المسجد بوفاة النبي صلى الله عليه و سلم تقطرت قلوبهم هما و غما و لم يدروا من عظم الخطب ماذا يفعلون و كيف يتصرفون ، فهذا عمر لا يمكنه أن يصدق ما حدث ، حقا إنه لم يستطع بل أخذ يصيح بأعلى صوته قائلا إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يموت ، عندها خرج أبو بكر إلى الناس و أخذ يقول بصوت هادئ: " أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن محمدا رسول الله ، أما بعد ؛ فيا عباد الله ، من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت." ثم أعقب كلامه بهذه الآيات التي نزلت بعد غزوة أحد:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ

الآيتان 144-145

و عقب ذلك اجتمع الصحابة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي سبق أن اختاره رسول الله صلى الله عليه و سلم ليصلي بهم وقت مرضه ثم بايعوه بالخلافة ، و بعد أن تم عقد البيعة قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه و ألقى فيهم خطبة بهذه المناسبة ، و قد ورد في ختامها : "...أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ."

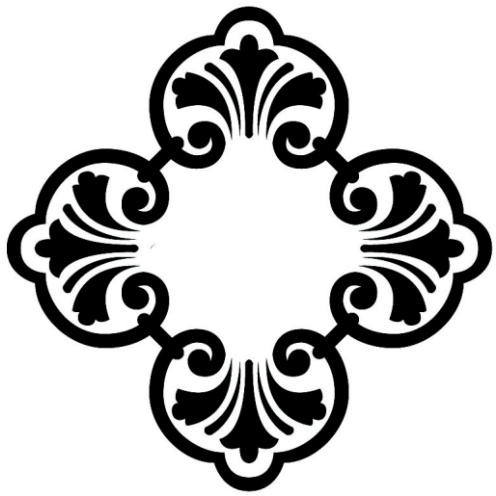
ثم قام الناس و سألوه : " أين ندفن رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ " تذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما قاله صلى الله عليه و سلم عندما كان على قيد الحياة: " ما قبض الله نبيا قط إلا دفن حيث قبض روحه ." و هكذا تم دفنه صلى الله عليه و سلم في قبرٍ حفر في حجرة عائشة رضي الله عنها في دارٍ مجاورة للمسجد ، و هذا المكان الطاهر هو ما يعرف الآن بالمسجد النبوي الذي يفد إليه المسلمون من كل أرجاء المعمورة للدعاء فيه و للصلاة و السلام على نبي هذه الأمة محمد صلى الله عليه و سلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

سورة القلم الآيتان : 3-4

resim



مجموعة من أحاديث وردت في الترمذي في شمائل النبي صلى الله عليه و سلم

ما جاء في خَلق رسول الله صلى الله عليه و سلم

عن أنسٍ قال:

– "كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم ربعةً ليسَ بالطَّويلِ ولا بالقصيرِ حسنَ الجسمِ أسمرَ اللونِ وكان شعرهُ ليسَ بجعدٍ ولا سبطٍ".

عن إِبْرَاهِيمُ بنُ مُحَمَّدٍ من وَلَدِ عَليّ بنِ أبي طالبٍ قَالَ:

ـ "...أجودَ النَّاسِ صدراً، وأصدقَ النَّاسِ لهجةً، وألينهُم عرِيكَةً، وأكرمهُم عشرةً، من رآهُ بديهةً هابَهُ، ومن خالطَهُ معرفةً أحبَّهُ، يقولُ ناعِتُهُ لَمْ أرَ قبلهُ ولا بعدهُ مثلهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم" .

عن هند بن أبي هالة رضي الله عنه قال :

– " كان رسول الله صلى الله عليه و سلم فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع و أقصر من المشذب عظيم الهامة...و يمشي هونا ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صب ، فإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جلُّ نظرِه الملاحظة ، يسوق أصحابه ، يبدر من لقي بالسلام ".

عن جابر بن سمرة يقول :

"كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ضليع الفم ، أشكل العينين ، منهوش العقب. رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم في ليلة إضْحِيان ، و عليه حُلَّةٌ حَمْرَاءُ ، فجعلت أنظر إليه و إلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر ".

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

"كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أبيض ، كأنما صيغ من فضة ، رَجِلَ الشعر ".

عن سعيد الجريري قال: " سمعت أبا الطفيل يقول: رأيت النبي صلى الله عليه و سلم ..." قلت : "صفه لي، قال: "كان أبيض ، مليحا ، مُقَصَّداً ".

قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: " يا رسول الله قد شبت ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم:" شيبتني هود والواقعةُ والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوِّرَتْ." (معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه و سلم أخبره بأن الآيات الورادة في هذه السور فيها تذكير بيوم القيامة و النار و أن قلقه أو خوفه على البشرية هو الذي شيبه صلى الله عليه و سلم .)

عن أبي سعيد الخدري قال: "كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا استجدَّ ثوبا سمّاه باسمه – عمامة أو قميصا أو رداء– ثم يقول: " اللهم لك الحمد كما كسوتنيه ، أسألك خيره و خير ما صنع له ، و أعوذ بك من شره ، و شر ما صنع له."...عن سمرة بن جندب قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" البسوا البياض فإنها أطهر و أطيب ، و كفِّنُوا فيها موتاكم".

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال:

" إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين ، و إذا انتزع فليبدأ بالشمال ، فلتكن اليمنى أولهما تُنْعَلُ و آخرَهما تُنْزَعُ ".

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:

– "كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُحبُّ التَّيَمُّنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ فِي طُهُورِهِ و تَرَجُّلِهِ وتَنَعُّلِهِ".

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:

– "ما رأيتُ شَيْئَاً أحسنَ مِن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم كَأنَّ الشَّمسَ تجري في وجهِهِ، وما رأيتُ أحداً أسرعَ في مشيهِ من رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم كأنَّما الأَرْضَ تطوى لهُ إنَّا لَنُجْهِدُ أنْفُسنَا وإنَّهُ لغيرُ مُكترِثٍ".

قال إبراهيم بن محمد من وُلْدِ علي بن أبي طالب :

"كان عليٌّ إذا وَصَفَ النبيَّ قال: "كان إذا مشى تقلَّعَ كأنَّما يمشي في صببٍ".

عن عبدِ الرَّحمَنِ بنِ أبي بكرةَ عن أبيهِ قال:

– قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم: " ألا أحدِّثكُمْ بأكبرِ الكبائرِ قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ قال: الإشراكُ باللهِ وعُقوقُ الوالدينِ قال: وجلسَ وكانَ مُتَّكئاً قال: وشهادةُ الزُّورِ أو قولُ الزُّورِ فما زالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم يقولها حتى قُلنا ليتهُ سكَتَ".

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال:

" كنا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوما ، فَقُرِّبَ إِلَيْهِ طعامٌ ، فلم أر طعاما كان أعظم بركة منه أول ما أكلنا ، ولا أقل بركة في آخره ، قلنا يا رسول الله ، كيف هذا؟ قال:" إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا ، ثم قعد من أكل ولم يسم الله ، فأكل معه الشيطان ".

عن عائشة قالت: " قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :" إذا أكل أحدكم فنسي أن يذكر اسم الله على طعامه فليقل : " بسم الله أولَه و آخرَه".

عن عمر بن أبي سلمة أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و عنده طعام ، فقال: " أُدْنُ يا بنيَّ ، فسمِّ الله تعالى ، و كل بيمينك ، و كل مما يليك."

عن أبي سعيد الخدري قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طعامه قال: " الحمد لله الذي أطعمنا و سقانا و جعلنا من المسلمين".

عن أنس بن مالك قال: " قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :" إنّ الله لَيرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمدَه عليها ، أو يشرب الشَّرْبَةَ فيحمدَه عليها".

عن أبي عثمان النَّهْدي قال: "قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:" إذا أُعْطِيَ أحدُكم الريحانَ فلا يردَّه فإنه خرج من الجنة".

عن عائشة رضي الله تعالى قالت: " ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذا ، و لكنه كان يتكلم بكلام بيِّنٍ ، فَصْلٍ ، يحفظه من جلس إليه".

قال الحسن :"سألت خالي هند بن أبي هالة ، و كان وَصَّافا قلتُ: "صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : " كان رسول الله صلى الله عليه و سلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم عن غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصلٌ لا فضولَ ولا تقصيرَ ليس بالجافي ولا الْمَهين ، يُعَظِّمُ النعمةَ وإنْ دقَّتْ ، لا يذم منها شيئا غيرَ أنه لم يكن يذم ذوّاقا ولا يمدحه ، ولا تُغضبه الدنيا و لا ما كان لها فإذا تُعُدِّيَ الحقُّ لم يَقُمْ لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له، و لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار ، أشار بكفه كلها ، وإذا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا وإذا تحدث اتصل بها ، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ،و إذا فرح غضَّ طَرْفَهُ ، جُلُّ ضَحِكِهِ التبسمُ " .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "إن أصدق كلمةٍ قالها الشاعر ، كلمة لبيد : [ألا كل شيء ما خلا الله باطل] "

عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم

كان إذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن ، وقال:" رب قني عذابك يوم تبعث عبادك ".

عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال:

"كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال:

" اللهم باسمك أموت وأحيا" ، وإذا استيقظ قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ".

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:

"كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا آوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه فنفث فيهما ، وقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجه وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات" .

ما جاء في صوم رسول الله صلى الله عليه و سلم

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال:

"كان يصوم من الشهر حتى نرى أن لا يريدُ أن يفطر منه ، ويفطر منه حتى نرى أن لا يريدُ أن يصوم منه شيئا ، و كنتَ لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته مصليا ولا نائما إلا رأيته نائما".

عن عائشة قالت: "كان النبي صلى الله عليه و سلم يتحرى صوم الاثنين و الخميس" ، وقالت في موضع آخر:

" ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يصوم في شهرٍ أكثر من صيامه في شعبان".

عن أبي صالح قال: "سألتُ عائشة و أم سلمة : أيُّ العمل كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قالتا: " ما ديم عليه و إن قلّ".

ما جاء في قراءة رسول الله صلى الله عليه و سلم

عن يعلى بن مَمْلَكٍ أنه سأل أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هي تنعت قراءةً مفسَّرةً حرفا حرفا .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

"كانت قراءة النبي صلى الله عليه و سلم ربما يسمعها من في الحجرة و هو في البيت".

ما جاء في تواضع رسول الله صلى الله عليه و سلم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

" كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعود المرضى و يشهد الجنائز و يركب الحمار ، و يجيب دعوة العبد".

قال الحسين:

" سألت أبي عن دخول رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: " كان إذا أوى إلى منزله جَزَّأَ دخولَه ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جَزَّأَ جُزْأَهُ بينه وبين الناس...و يقول صلى الله عليه و سلم :" وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة".

و قال الحسين:" فسألته عن مجلسه ، فقال: " كان رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يقوم و لا يجلس إلا على ذكرٍ".

ما جاء في خلق رسول الله صلى الله عليه و سلم

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال:

"...فما قال لي: أفٍّ قطُّ ؛ وما قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟ وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أحسن الناس خلقا".

عن عائشة أنها قالت: "...و لا يَجْزِي بالسيئة السيئة ؛ و لكن يعفو و يصفح".

و قالت عنه أيضا:

"ما ضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده شيئا قطُّ إلا أن يجاهد في سبيل الله ، و لا ضرب خادما و لا امرأة".

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

" كان النبي صلى الله عليه و سلم لا يَدَّخِرُ شَيْئاً لغدٍ".

ما جاء في رؤية رسول الله صلى الله عليه و سلم

عن عبد الله ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:

" من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي".

آل بيت الرسول صلى الله عليه و سلم

نساؤه : خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: هي أولى زوجات النبي صلى الله عليه و سلم و كانت امرأة تاجرة ذات شرف و مال ، و ترملت مرتين قبل أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و عند زواجها منه كان عمرها أربعين عاما ، و الرسول صلى الله عليه و سلم خمسة و عشرين عاما، و ظلت خديجة زوجته الوحيدة ما يقرب من خمس و عشرين سنة ، و أنجبت له من البنات زينب ، و رقية ، و أم كلثوم و فاطمة كما أنجبت من البنين قاسم و عبد الله اللذين توفيا في سن صغيرة جدا.

سودة العامرية رضي الله عنها: و بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها تزوج رسول الله صلى الله عليه و سلم من سودة العامرية ، و كان والدها من السابقين إلى الإسلام ، و كانت قبل أن تتزوج رسول الله صلى الله عليه و سلم في عصمة أحد الصحابة المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة هربا بدينهم ، و ترملت حينما توفي عنها زوجها و هما في طريق العودة من الحبشة إلى مكة .

عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: و في هذه الأثناء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبا لعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، و لصغر سنها تأجل زواجهما مدة ثلاث سنوات، و من فضائلها أنها روت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أحاديث كثيرة.

حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: و بعدها تعاقب زواج رسول الله صلى الله عليه و سلم من نسائها الأخريات ، و كانت إحداهن حفصة بنت عمر بن الخطاب التي توفي عنها زوجها جراء إصابات تعرض لها يوم بدر ، و كانت حفصة رضي الله عنها لا تزال في ريعان شبابها في الوقت الذي ترملت ، ، و تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم في العام الثاني أو الثالث الهجري.

زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها: و من الأرامل اللاتي تزوجهن رسول الله صلى الله عليه و سلم زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها ، قتل عنها زوجها يوم بدر شهيدا ، و لكرمها و عطفها الخاص على الفقراء و المساكين اشتهرت بلقبها الكريم أم المساكين.

أم سلمة رضي الله عنها: و هي هند بنت أمية بن المغيرة أحد أشراف قريش ، و هي من السابقين إلى الإسلام ، و كانت في عصمة أبي سلمة ، رافقت زوجها إلى الحبشة فرارا بدينها ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد أن توفي عنها زوجها نتيجة جرح عميق أصيب به في غزوة أحد.

برة الجويرية رضي الله عنها: و بعد غزوة الخندق بعام دخل رسول الله صلى الله في معركة أخرى مع بني المصطلق انتهت بانتصاره عليهم ، و كانت برة بنت سيد بني المصلطق من النساء اللاتي وقعن في السبي ، فأتت فيهن و الغنائمَ إلى معسكر المسلمين ، فأعانها رسول الله صلى الله عليه و سلم على فكاكها ، و تزوجها ، فغير اسمها و سماها جويرية رضي الله عنها .

زينب بنت جحش رضي الله عنها: أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، زوّجها رسول الله صلى الله عليه و سلم زيد بن حارثة الذي كان عبدا له ثم أعتقه و اتخذه ابنا له ، ثم طلقها زيد في السنة الخامسة للهجرة ، و لما حرّم الإسلام التبني نزلت آية أمرت رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يتزوج من زينب ، فتم بذلك نسخ تحريم زوجة المتبنى.

أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها: اعتنقت أم حبيبة بنت أبي سفيان الإسلام مع زوجها السابق عبيد الله بن جحش ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة مع امرأته ، فلما قدمها تنصر و فارق الإسلام مما ترتب عليه انفساخ نكاحهما ، و مات هناك نصرانيا ، و علم رسول الله صلى الله عليه و سلم بمعاناتها ، فقرر الزواج منها ، فبادر بعرض فكرة الزواج عليها عن طريق النجاشي ، ولما تلقت أم حبيبة الفكرة بالقبول و الرضا تم زوجهما.

صفية بنت حيي رضي الله عنها: أبوها سيد بني النضير اليهودية ، و كان من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و حينما أخرجت بنو النضير من المدينة المنورة بلا رجعة ، استقر والدها في خيبر ، و عقب سقوط خيبر في أيدي المسلمين في العام السابع للهجرة كانت صفية من بين السبايا ، ثم دخلت في الإسلام ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم.

مَيْمُوْنَةُ بِنْتُ الحَارِثِ بنِ حَزْنٍ الهِلاَلِيَّةُ رضي الله عنها: و هي أخت أم الفضل زوجةِ العباس عم النبي صلى الله عليه و سلم ، عاشت ميمونة رضي الله عنها أرملة في مكة، و تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم عقب دخوله مكة مع أصحابه بعد انقضاء سنوات النفي.

ماريا القبطية رضي الله عنها: بَعَثَ رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد صلح الحديبية برسائل خاصة إلى سوريا و مصر و غيرهما من بلاد يدعو ملوكها و رؤساءها إلى الإسلام ، فكانت مصر من بين البلاد التي استجابت دعوة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و كانت مارية جارية قبطية أهداها عظيم القبط في مصر إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم تعبيرا عن حسن نواياه ، و هي المرأة الثانية بعد خديجة رضي الله عنهما التي أنجبت لرسول الله صلى الله عليه و سلم ولدا ، و هو الذي سمي إبراهيم و قد مات في سن صغيرة.

بنات النبي صلى الله عليه و سلم: زينب الكبرى : أمها خديجة بنت خويلد ، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن ربيع ، أما رقية و أم كلثوم ، فكانتا متزوجتين من ابني أبي لهب عتبة و عتيبة قبل البعثة ، و انتهى زواجهما مع ظهور نور الإسلام ، ثم تزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية ، و لما ماتت رقية ، تزوج أختها أم كلثوم.

و تزوجت فاطمة الزهراء رضي الله عنها علي ابن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه و سلم ، و أنجبت منه الحسن و الحسين و زينب رضي الله عنهم أجمعين.

تم الاعتماد في تأليف هذا الكتاب الذي يقدم للأطفال قبسات عن سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم الطاهرة على مصادر من التراث الإسلامي بما فيها كتب الحديث ، و لتوثيق ما ورد فيه من معلومات ، قام المؤلف من وقت إلى آخر باقتباس آيات قرآنية تتصل بالموضوع حتى تكون المصادر أصلية و الأسلوب حيويا و شيقا.

و بما أن الكتاب تم تأليفه للأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشرة إلى خمسة عشر إلا أنه يمكن أن يفيد بوضوحه و جمعه الشتات كل من يريد أن يطلع على سيرة النبي صلى الله عليه و سلم الطاهرة أول مرة .

و أثري الكتاب بصور ملونة عديدة روعيت الدقة البالغة في صحة تفاصيلها ، و لم يعمد فيها إلى تصوير أي من رسول الله صلى الله عليه و سلم أو أحد من صحابته الكرام، و إنما استهدفت الصور أن تصور حياة الإسلام الموروث على طبيعتها في أي بلد عربي مع لقطات حدثت في هذه البلدان منذ ما يزيد عن ألف عام.

ليلى عزام

هي ابنة شقيق الكاتب المسلم المعروف الدكتور عبد الوهاب عزام الذي تولى منصب رئيس جامعة القاهرة ، و هو من مؤسسي جامعة الرياض ، و من جهة ثانية هي أخت زوجة الدكتور عبد الرحمن عزام ، مؤلف [الرسالة الخالدة لمحمد صلى الله عليه و سلم] و من مؤسسي الجامعة العربية ، و السيدة ليلى عزام من مواليد مدينة القاهرة ، و من خريجي كلية الآداب و الفنون جامعة القاهرة ، عاشت مع زوجها الدكتور عمر عزام في المملكة العربية السعودية و لبنان و فرنسا ، و يعيشان حاليا مع أولادهما في إنجلترا حيث يدرسون في مدينة كمبرج.

عائشة جورنور(Aisha Gouverneur)

هي من مواليد Virginia Gray Henry بولاية كنتاكي الأمريكية ، اعتنقت الإسلام عام 1968 م و تخرجت في Bronxville Sarah Lawrence College بولاية نيويورك ، ثم حصلت على شهادة الماجستر في مجال التربية في جامعة مشيغن ، بالإضافة إلى أنها قامت بإعداد دراسات علمية عديدة في جامعة الأزهر و عملت في مجال التدريس فيها ما يزيد عن عشر سنوات ، فقد ظلت في مصر أكثر من عشر سنوات ، و هي الآن تعيش مع زوجها و ابنيها بمدينة كمبرج البريطانية.